قصص مصرية

الدكتور محمد حسين هيكل

ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة
١٩٦٩ / ١٩٧٠

الطبعة الأولى
١٩٦٩

للمؤلف

ذو النورين عثمان بن عفان		الطبعة الأولى	١٩٦٤
الشرق الجديد		» »	١٩٦٣
الإمبراطورية الإسلامية		الطبعة الثانية ١٩٦١ » »	١٩٦٠
هكذا خلقت		» » ١٩٥٩ » »	١٩٥٥
مذكرات فى السياسة المصرية	الجزء الأول	» »	١٩٥١
» » » »	الثانى	» »	١٩٥٣
الفاروق عمر	» الأول	الطبعة الرابعة ١٩٦٣ » »	١٩٤٤
» »	» الثانى	» » ١٩٦٤ » »	١٩٤٥
الصديق أبو بكر		» الخامسة ١٩٦٤ » »	١٩٤٢
فى منزل الوحى		» الرابعة ١٩٥٨ » »	١٩٣٧
حياة محمد		» التاسعة ١٩٦٥ » »	١٩٣٥
ثورة الأدب		» الثالثة ١٩٦٦ » »	١٩٣٣
ولدى		» » » » »	١٩٣١
تراجم مصرية وغربية		» » ١٩٥٤ » »	١٩٢٩
عشرة أيام فى السودان		» » ١٩٤٩ » »	١٩٢٧
فى أوقات الفراغ		» الثانية ١٩٦٨ » »	١٩٢٥
جان جاك روسو	الجزء الثانى	» الثانية ١٩٦٥ » »	١٩٢٣
زينب		» السادسة ١٩٦٥ » »	١٩١٤
دين مصر العام — بالفرنسية		» »	١٩١٢

الإهداء

إلى مصر . . .

و إلى « مصرية »

إليكما كان إهداء « زينب » فى البدء

ولعل من الحق أن يكون اليكما إهداء هذه المجموعة

فى الختام

مقـــدمة

بقـــلم

أحمد محمد حسين هيكل المحامى

« بدأ الدكتور هيكل حياته كاتب قصـــة . . . وختمها كاتب قصة[1] » .

وبين البداية والنهاية قريب من نصف قرن شهدت خلاله الحياة المصرية تطوراً قل أن يكون لمثله نظير فى غير مصر . وقد صاحب هذا التطور تطور مماثل فى فنون الأدب ، لعل القصة ، والقصة القصيرة بنوع خاص ، كانت أكثر ميادينة رحباً وسعة .

وتطور الحياة المصرية فى شتى مظاهره هو ما يشغل الدكتور هيكل فى هذه المجموعة القصصية ، مثلما كان شاغله الأكبر فى أكثر أعماله .

وإذا كان هناك خط متصل من البدء إلى الختام : من « زينب » فى سنة ١٩١٤ إلى « هكذا خلقت » فى سنة ١٩٥٥ ، ومن « أبيس » فى العشرينات إلى بقية قصص هذه المجموعة فى الخمسينات ، فذلك هو الاهتمام البالغ بالحياة المصرية فى مختلف صورها وأشكالها . فسواء كتبت

---

(١) من كلمة للأستاذ محمود تيمور .

فى ريف « زينب » وطبيعتها السمحة ، وتقاليدها الجامدة ، وحبها العف البرىء أو كنت فى مجتمع « هكذا خلقت » القاهرى الذى عمل فيه التطور وفعلت به المدنية ما فعلا ، فإنما تمسكك فى الحالين عناية قصوى بتصوير الحياة المصرية .

والأمر كذلك فى قصص الدكتور هيكل القصيرة أيضاً . هو كذلك فى « سميراميس » وفى « أفروديت » وغيرهما مما استوحاه من تاريخ الفراعنة ، وهو كذلك أيضاً فى « الشيخ حسن » وفى « حكم الهوى » وغيرهما مما استوحاه «من واقع حياتنا الحاضرة ... ومما شهدت دور القضاء ، لأن هذه الدور تشهد من المآسى الوجدانية الشىء الكثير الذى يصلح مادة للقصص ويطبعه طابع مصرى صميم ويجعل الأدب الذى يستلهم مادته أدباً قومياً بكل معنى القومى[1]» .

والأمر كذلك أيضاً فى هذه المجموعة المستوحاه « من واقع حياتنا الحاضرة » . هو كذلك فى « شاهد ملك » حين يصور الدكتور هيكل جانباً من وطأة الحكم العسكرى البريطانى إبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وكيف كان هذا الحكم يعمد إلى أقسى وسائل

---

(١) ثورة الأدب ـ ط ١٩٦٥ ص ١٣٧ ، ١٣٨ ـ وقد نشرت هذه القصص فى « ثورة الأدب » و « فى أوقات الفراغ » .

القمع ضد الوطنيين وأشد طرقه وحشية ، وكيف كان يلجأ إلى أساليب من الإغراء يسقط بها من لا تقوى نفوسهم على مقاومته . وهو كذلك فى « ميراث » حين يتخذ من نظام الوقف الأهلى الذى عانت منه أسر مصرية كثيرة ما عانت ، وارتفع النداء مطالباً بإلغائه منذ بداية هذا القرن ، يتخذ منه طريقـه لتصوير جوانب من حياة مجتمعنا وتقاليده .

لست أريد أن أستطرد فى بيان أوجه الارتباط بين هذه المجموعة وسائر قصص الدكتور هيكل ، وها هى ذى صـفة المصرية مجلوة فى كل صـفحة من صفحاتها تحدّث عن نفسها بخير مما استطيع أن أحدّث أنا عنه . لـكن الذى لا بد من التنبيه إليه هو أن الـكثير مما يبدو من أحداث هذه القصص اليوم طبيعياً ، وربما بديهياً ، لم يكن كذلك إلى عهد قريب ، وهو لم يكن كذلك قط فى الوقت الذى استلهمت هذه القصص ظروفه وأحداثه . ذلك أن التطور السريع الذى طرأ على العلاقات الاجتماعية فى مصر ، وعلى العادات والتقاليد التى تشكلها ، كاد يحجب عنا الشكل الحقيقى الذى كانت هذه العلاقات قد آلت إليه كنتيجة لعصور طويلة من الجمود ، جموداً آذن بالانقضاء منذ بدأت البعثات المصرية إلى أوربا فى أواخر القرن

الماضى ، ومنذ أخذت طلائع هذه البعثات تنهل منها وتستعجل إثبات أثرها الحاسم .

وهذه الطلائع التى ولّت وجوهها شطراً أوربا أول الأمر تنهل من نبع علمها وثقافتها ، وظلت تمكّن لهذا العلم ولتلك الثقافة فى نفسها ، هى التى أمكنها من بعد أن تنظر فى هذه النفس فتتعمقها وتتأمل أغوارها . وهذا التأمل فى أعماق النفس المصرية هو الذى أثمر أروع ما أبدع جيل الدكتور هيكل : تحديد ملامح شخصية مصر الفكرية . ولقد كانت الأرض خصبة حقاً « لأن فى الحياة المصرية ـ كما يقول ـ من مصادر الهام الأدب فى مختلف نواحيه أغزر وأخصب مما فى غيرها . . . وغزارة هذا الفيض خير مادة لما يريد ـ الكاتب ـ من صور الأدب القومى فى الحياة الحديثة » .

* * *

إذا كانت المصرية مستبدة إذن بقصص الدكتور هيكل على نحو مارأيت أو على نحو ما تفصح هذه المجموعة عنه ، فلا عجب أن نراه يتخذ من تاريخ مصر القديم مادة قصصه القصيرة الأولى فى العشرينات ، ثم أن يفكر فى أن يتخذ من بعض عصور مصر الإسلامية وعلى الأخص عصر

الحروب الصليبية مادة لقصص أخرى[1]. ولا عجب كذلك أن يتبع هذا بـ « كفارة الحب » فى سنة ١٩٣٣ ، وأن لا يؤثر انقطاعه بعد ذلك عن القصة القصيرة أكثر من عشرين عاما تنوعت خلالها أوجه ممارسته للحياة أشد التنوع ، على هذا الخط المصرى الذى انطلق من « زينب » وظل ينتظم أعماله جميعاً ويصل بينها مثلما يصل الخيط أزهار الياسمين .

وليس غريباً وهذا هو الشأن ، أن نرى مجلة «المصور» حين قدمت قصص هذه المجموعة لأول مرة سنة ١٩٥٥ ، أن تقدم لكل منها بكلمتى « قصة مصرية » ، وأن يدور بخلد الدكتور هيكل نفسه أن يضم إليها أحاديثه عن الفراعنة وأن يطلق عليها جميعاً « أساطير الأولين » .

ولعلنا لم نتجاوز كثيراً ما دار بخلده رحمه الله حين أطلقنا عليها «قصص مصرية» ، بعد أن ظهر أن نقل قصصه الفرعونية من مواضعها الأصلية فى كتابى «ثورة الأدب» و «فى أوقات الفراغ» غير ميسور .

ولا ريب عندى فى أن هذا الذى فكّر فيه الدكتور هيكل من اتخاذ تاريخ مصر القديم والحديث ، ثم تطورها المعاصر ، مادة

---

(١) ثورة الأدب ص ١٣٤ .

لقصصه كان صدى لما كان يدور بخاطره منذ مقتبل حياته الأدبية ، والذى دعا إليه تلك الدعوة القوية فى « ثورة الأدب » إذ يقول :

« ليقتحم أدبنا إذن ماضينا . وليقتحم هذا الماضى بأدوات البحث الأدبى وبأساليب الكتابة الحاضرة . وليقتحم هذه الميادين حراً طليقاً غير هياب ولا متردّد . وليقتحمها بروح الثورة التى اقتحم بها الأدب الغربى تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدهما ، وبروح الثورة التى اقتحم بها الأدب العربى تراث فارس ومصر واليونان . وليقلّب فى هذا الماضى ما شاء له التقليب والتنقيب بروح النقد والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده ، الحق فى أسمى صوره التى تلتمس الإنسانية على الأجيال ، فتكاد تلمسه أحياناً حين يكشف عنه أنبياء الإنسانية وشعراؤها وكتابها ثم لا يلبث أن يفلت من يدها لأول ما تغريها المادة وتلهيها عن جادة هذا الحق الصحيح » .

القاهرة فى يوليو سنة ١٩٦٩ أحمد هيكل

كفارة الحب

كانت تناهز الخامسة والثلاثين ، صبوح الوجه حلوة الابتسامة ذكية النظرة أدنى إلى القصر غير بادنة وغير نحيفة ، وكانت شفتاها المقدتين تزيدان ذكاء نظرتها وحياً بالكثير من المعانى . وكان أصدقاؤها لا يعرفون من أمرها إلا القليل الذى ينقله إليهم صديقنا وقريبها حمزة ... لكنهم كانوا يعنون بأنبائها لما تناقلت الألسن وتناهبت الأسماع من حديثها فى الشهور الأخيرة . فالقاهرة مدينة شديدة التسامح مع عبث الهوى شديدة الأغضاء عمن يسلمون عنانهم لدوافع تياره . لكنها شديدة الدهشة لصادق الحب ترهف الآذان إذا حدّث أحد فى حى من أحيائها عن غرام صادق وعاطفة تستعذب الصحبة وتستهين بالموت . لذلك أثارت قصة زهيرة دهشة القاهريين وطلعتهم وزاد ما فى نفوس ظرفائهم من شك أصيل فى صدق عاطفة الحب أو فى استطاعة امرأة أن ترى فى الحب خطيئة تستأهل التكفير عنها .

وكان صديقنا وقريبها حمزة يخطو إلى الأربعين بقلب مطمئن ونفس باسمة للحياة سخراً من الحياة . وكان مع ذلك شديد العناية

بشئون يعتبرها كثيرون من أصحابه تافهة ويراها هو جليلة الخطر ما دامت لا تعنيه وحده ، بل تعنى آخرين معه . من ذلك أنه كان شديد الدقة فى مواعيده حتى لـكنا نضبط ساعاتنا ساعة يدق الجرس ويدخل هو علينا ، ولـكنا نتهمه بأنه إذا ألفى نفسه تقدم عن موعده دقيقة أو دقيقتين وقف بالباب ممسكا ساعته بيده حتى تـكون الثانية المضبوطة التى يدق الجرس فيها . وكنا يومئذ ننتظره فى الساعة الخامسة تماماً . وقبيل هذا الموعد ببرهة دق الجرس فامسكنا ساعاتنا بأيدينا وتلاقت نظراتنا تتهم الساعات جميعاً بتقديم بضع ثوان عن الموعد الدقيق . لـكن الداخل لم يكن حمزة . وانقضت بعد الخامسة دقائق وانقضى ربع الساعة وانقضى نصف الساعة ولم يجىء . هنالك بدأ يساورنا القلق عليه وجعل كل منا يلقى ما يجول بظنه أنه سبب تأخره . قال أحدنا لا بد أصابه مرض مفاجىء . وقال آخر : بل تعلق بأذياله فى اللحظة الأخيرة صديق لحوح . وقال ثالث : ما أكثر ما يصيب الناس من حركة المرور فى هذه الأيام . وبدأ كل يقص ما حمله على ظنته . وفيما نحن كذلك دق الجرس ودخل حمزة فحيا وجلس مطرقا ، وخلع طربوشه ووضعه إلى جانبه ثم طلب فنجالا من القهوة وسألنا عما كنا نتحدث فيه . فلما ذكرنا له ما كان من مخاوفنا بسبب تأخيره بدت على وجهه أمارات تردد حاول بعدها أن

يعدل بالحديث إلى غير هذا الموضوع . لـكن أحدنا ألح به يسأله عن علة تأخره . ورأينا نحن على قسمات حمزة ما دلنا على أن فى الأمر سراً لا يأبى هو أن يبوح به ولنا فى الاستماع إليه لذة أى لذة . فشاركنا صاحبنا فى إلحاحه . وبدرت من أحدنا هذه الـكلمة : لعل شيئاً يتصل بزهيرة كان سبب تأخرك . فاندفع حمزة قائلا :

— نعم . نعم بسبب زهيرة تأخرت . لقد قضيت عندها هذا النهار منذ صباحه : ولقد رأيتها اليوم غيرها فى سابق أيامها ، لقد كانت دائما ساكنة سكون أبى الهول برغم ما تعرف من تناول الناس حديثها . بل لقد كانت تبتسم إشفاقا على هؤلاء الذين يتهمونها بأخس التهم ، ازدراء إياهم وعبثا بحمقهم وجهلهم الحياة وإسراعهم إلى القضاء فى أدق شئونها ، شئون العواطف . أما اليوم فـكانت ساكنة سكون أبى الهول ، كانت ساكنة سكون القـبر . فلما اطمأن مقامى عندها وبدأت أبادلها الحديث قالت أنها فـكرت طويلا فيما يقول الناس عنها وخشيت أن يعلق بذهنى منه شىء أقسو به فى الحـكم عليها وأنها تريد لذلك أن تقص علىّ قصتها . وفى قصصها قضيت الوقت كله . وما أدرى أكانت قصتها اعترافا أو وصية أم دفاعا . لـكنها ختمت قصتها بقولها :

— أما ترانى وقد قصصت عليك حديثى ، كفارة الحب .

ثم أنها اعتذرت قائلة : أنها تشعر بصداع وطلبت إلى خادمتها أن تجيئها بكوبة ماء صبت فيه مسحوقا أبيض من ورقة أخرجتها من حقيبتها ثم أشارت إلىّ أنها بحاجة إلى الاستراحة فاستأذنتها وجئت إلى موعدكم ، ولئن كنتم قد لاحظتم علىّ شيئا من اضطراب النفس فهو من أثر هذه القصة التى روت والتى جعلتنى أشعر حقا بأنها كفارة لذنوب لاتقع عليها أثقل تبعاتها .

قال أحدنا — هات الوصية .

وقال الآخر — هات الدفاع .

وقال ثالث فى صوت محزون — ارو ياصاح حديث كفارة الحب :

اعتدل حمزة فى مقعده وأن بقى ملقيا بنظره إلى الأرض فى إطراقة المهموم وأمسك جبينه بيده كأنما يحاول أن يستحضر الألفاظ التى سمعها ثم قال :

— أخشى أن تخوننى الذكرة فأقع فيما يقع فيه غيرى من الناس من سوء تصوير العواطف وما تجرى به الأقدار فى شأنها فاسىء إلى زهيرة حين أريد أن أقف من الأمر عند رواية حديثها . على أنى سأحاول جهدى رجاء أن لا أضيع شيئا من ألفاظها حين جلست فى مقعدها الطويل جلسة المطمئن وقالت فى سكينة الحازم الذى اعتزم أمره :

تذكر ياصاح زواجى بعد وفاة أمى ونوالى أجازاتى المدرسية . كنت قد بلغت الثالثة والعشرين وقد رفضت أكثر من خاطب وأملت بهذا الرفض المتكرر أبى . ثم انقضى عام بتمامه وما يذكرنى خاطب حتى خيل لأبى أننى قد قضيت بزائف كبريائى على حظى وأننى سابقى من بعد عانساً ماحييت ، وكم دفع عمتى لتحدثنى فى هذا الأمر ولترد إلى رأسى عقلى كما كانت تقول . وبلغ من إلحاحها إجابة لأمره أننى شعرت بنفسى عالة فى البيت وعبئاً على كواهل أبى وفكرت أن أشتغل بالتعليم وأمتهن أى عمل يريح أهلى منى وأفضيت إلى عمتى بذات نفسى . ولا تسل عن الثورة التى ثارها أبى وعن إتهامه إياى بالعقوق وبمخالفة إرادته وهو لايريد لى إلا الخير . وهل خير عنده لامرأة فى غير الزواج وتدبير مملكة المنزل وإنجاب البنين وتربيتهم ليكونوا لها فى الحياة عوناً وبعد الحياة ذكرا وللعالم عمراناً . أما هذا الاقتحام لميادين العمل مما تلجأ إليه بنات اليوم فلم يكن عنده إلا ضلالا عن طريق الطبيعة والحق وثورة على أمر الله وما خلقنا له . وانقضت الأيام وعدلت عما كنت فكرت فيه وهدأت ثورة أبى ونالنى من عطفه مالم يحرمنى منه قط . ثم جاء يخطبنى ذلك الذى أصبحت من بعد له زوجاً وأبلغتنى عمتى النبأ مصحوباً برغبة أبى فى أن يتم الزواج . ماذا عساى أصنع ؟ أأرفض فأثير ثائرة جديدة

وأصبح البنت العاقة الثائرة على أمر الله الضالة عن طريق الطبيعة والحق . أأقبل وأنا أعرف أن هذا الرجل قليل البضاعة من العلم وإن يكن ذا سعة من المال وأعرف أنه يكبرنى بعشرين سنة ، وهو إلى ذلك ليس بالجميل ولا هو ذا وفرة من الذكاء أو خفة الروح . ورأت عمتى ترددى فامتعضت ونبهتنى إلى مافى ذلك من إغضاب أبى الذى يريد لى الخير والذى يعرف من شئون الحياة فى رأيها مالا أعرف ونادى أبى أخته باسمها بصوت ممتلىء قوة وعزيمة ففت ذلك فى قواى وأضعف ترددى ولم أجد ما أقول لعمتى إلا أننى أسلمت الأمر إليهم والتبعة فى سعادتى وشقائى من بعد عليهم . وقبلتنى عمتى فرحة متهللة وخرجت تهرول ملبية النداء . أما أنا فانهملت من عينى دمعة يأس واستسلام وتوجهت بقلبى لله أشكو إليه غدر القدر .

« وزففت إلى زوجى فلم يك إلا أيام حتى رأيته يبدى لى من صنوف المودة ويغدق على من نفيس الحلى والثياب ماجعلنى كلما أقبل علىّ أبى أقبل يده قبلة شكر وأعترف بسابغ جميله . ومضت الأشهر وبدأت الحلى والثياب تكثر وبدأت أمل هذا النوع من مظاهر الحب وأطمع من زوجى فى شىء آخر . أطمع منه فى جمال نفسه يغمرنى فيزيد فى حياتى ، وأطمع منه فى أن يبادلنى النظرة للوجود وما فيه من حسن واتساق فنى . وأطمع منه فيه هو لافى هداياه ولا فى ماله . أطمع فيه

جديداً كل يوم ، مختلفاً كل يوم جماله عن اليوم الذى قبله . مبدعا فى وجوده ووجودى مايزيد الحياة أمامنا فسحة وانبساطا ورقة وجمالا . ولم أقف بمطمعى هذا عند الرجاء ، بل حاولت أن أبعث إلى نفسه من وجودى ومن حياتى ومن قلبى ومن عاطفتى ومن هواى ومن عقلى مايحركه إلى ما أحب . وكأنما شعر المسكين بما تصبو إليه نفسى فحاول ولكن هيهات . فما كنا نكاد نبدأ تبادل عاطفة حتى ينقلب فى لحظة حيوانا . فإذا أجبته إلى حيوانيته رأيته بعدها هامدا باردا منطفىء النظرة لاتلمع عيناه بمعنى ولا يحس لى وجودا . وما كنا نكاد نتبادل حديثا غير حديث مزارعه وأمواله حتى يتثاءب ويعجز عن كتم ملاله . وإذا رآنى يوما أعجب بجمال فنى فى صورة أتأمل ، أو فى كتاب أقرأه ، أو فى منظر الطبيعة يوحى إلى بجمال الحياة الدائم الجدة وقف مبهوتاً وشعرت أنا به بعيدا وكأن بينى وبينه عوالم وعوالم . فإذا تعلق الأمر بشخصه أو بأمواله أو بشىء يهواه لمعت حدقتاه وتحركت فى نفسه أثره قوية لاتعرف حدودا .

« بدأ الضجر من أنانيته وضعة نفسه يدس إلى نفسى سمومه . ولست أدرى ما كان يصل بى الضجر إليه لولا ماشعرت به من تحرك الأمومة فى أحشائى . هنالك ذكرت قول أبى عن واجب المرأة وتناسيت ما كنت أطمع فيه من زوجى ، وتناسيت زوجى هو الآخر .

وانصرفت إلى أحلامى بهذه الأمومة التى كنت أزداد بها كل يوم شعورا وأزداد بسببها نسيانا لما عداها . وأنجبت حسانا وجعلت كل همى إلى العناية به . واغتبط زوجى بولده وجعل يغدق عليه بمثل ما كان يغدق علىّ فتبتهج نفسى لهذه الملابس الطفلة ولهذه الألاعيب يعبث حسام بها ويحبها حبى أنا إياه . وبدأ الولد يخطو ويتكلم وبدأت أرجو أن يناله أبوه بالعطف الأبوى الصادق وأن يفيض عليه من ذلك الحب نورا يشب الولد فى أرجاء ضيائه سعيدا بالحياة محبا إياها حبا ذكيا قوى الإدراك سريعه ليكون لى من بعد الرجل الذى أرجو . لكن خيبة رجائى فيما طمعت فيه لنفسى لم تكن دون خيبة هذا الرجاء فيما طمعت فيه لطفلى . لقد كان أبوه يحبه حبا شديدا . لكنه كان حبا حيوانيا هو حب الفطرة التى تدفع الدجاجة لتحنو على فراخها وتدافع عنهم . وكان حبا أنانيا لاشىء من الذكاء فيه . كان يحبه كما يحب عزبته وحصانه وأتومبيله . وليت أنانيته فى حب ولده أو فيما يبدى من ميل إليه كانت أنانية مستنيرة تعرف كيف توحى إلى ماتعتقد أنه فى ملكها بشىء من معنى الحياة الإنسانية يسمو به إلى ذوق جمال الحياة وإلى السمو فى إدراكها . بل كانت على العكس من ذلك أنانية ضيقة الأفق كأنانية الطفل وكأنانية الدجاجة فيها كثير من الحماقة عند الغضب والسخط ومن العطف عند الرضى والانبساط .

دفعت أحوال زوجى هذه إلى نفسى شيئاً من الثورة لكنى ألفيته يهز أكتافه لثورتى يحاول تهدئتها بمثل ما يحاول تهدأة طفله إذا صاح : بثوب لى أو لعبة لطفلى أو نزهة خلوية يخرج وإيانا إليها علّها تهدىء أعصابى على حد تعبيره . والأيام والشهور تمضى ولا أجد وسيلة أتغلب بها على طبع زوجى . هنالك بدأت ثورتى تسكن بالرغم منى ورأيتنى أميل إلى ناحية من الأنانية أنا الأخرى ، هى ناحية التسلى عن هذه الثورة بما حولى مما أطلق الناس عليه أنه أسباب الرياضة والمتاع ، فأكثرت من غشيان دور السينما والمسارح واستكثرت من الصديقات أبادلهن الزيارات ونزلت بآمالى ومثلى العليا إلى مستوى البيئة القاهرية وصدفت عما كنت أصبو إليه من جمال فى الحياة لا وجود له فيما حولى ورضيت كذلك بالحاضر دون أن يغير ذلك من نظرتى إلى زوجى ومن شعورى بأن كل واحد منا بعيد عن صاحبه كل البعد وإن تسايرنا انقطع طريق الحياة جنباً إلى جنب . وما جوار الأجسام إذا تباعدت الأرواح ولم تهتز القلوب بنبأة من تعاطف أو تفاهم .

« فى ذلك الحين سكن فى أحد المنازل المجاورة لنا قاض كان بالأرياف ونقل منها إلى القاهرة . ولم يمض على مجاورته إيانا زمن طويل حتى ربط التعارف بينه وبين زوجى وحتى دعاه زوجى لتناول

القهوة عندنا . وأتيح لى غير مرة أن أستمع إلى حديثه وأن أراه ، يالله من حديث كانت تفيض نبراته بالحرارة وكانت تموج عباراته بصور الحياة . كان يقص على زوجى كثيراً مما وقف عليه فى مختلف بلاد الريف . فكان يفيض عطفاً على أهله وتغنيا بجماله وإشفاقا على بؤس بنيه وأملا فى أن ترتفع بهم الأقدار إلى حظ من الإدراك لما حولهم من حسن نادر ومن بهاء وروعة . كنت أسائل نفسى : لما لا يشتغل صاحب هذا الصوت الساحر والبيان العذب بالمحاماة ولم لا يكون خطيباً ولم لا يقول الشعر . وتكررت زياراته وتوثقت الصداقة بينه وبين زوجى فأذن لى بمقابلته. أية رجوله تفيض عنه . رجولة فيها طموح وفيها فيض دائم التجدد ، رجولة إنسانية مضيئة تدرك من أسرار الحياة ما لا يدركه إلا الإنسان المهذب ، تدرك جمال الوجود وما فيه من فن تستخلصه الأجيال الإنسانية وتصوره فتزيد الحياة جمالا بل تخلق الجمال فيها خلقاً . وتحدث إلى زوجى عن الموسيقى فإذا هو يفهم من دقائقها حظاً غير قليل . وجاء معه ببعض كتب فى الأدب اطلعت عليها فتحركت نفسى الأولى التى خبت وخمدت تحت سجف الأنانية الجامدة الباردة التى أعدانى بها زوجى . هنالك تفتحت أمامى فى الحياة فرجة من أمل لو استطعت أن أصل بولدى ليكون على مثال هذا القاضى لكانت لى به فى الحياة سعادة تنقذنى مما صبوت إليه من الإمعان فى

التسلى بأسباب الرياضة والمتاع التافهة السخيفة التى تحيط بنا فى القاهرة وتردنى إلى حسن المتاع بأسمى ما فى الحياة من صور الحياة .

وأفضيت يوما بذات نفسى إلى زوجى لعله يشاركنى فى رجائى ويعاوننى على تحقيقه . لـكنه لم يلبث أن سمع ما أقول حتى حملق بى وحتى امتقع لونه . ثم عـدل عن الموضوع إلى حديث آخر انصرف بعد كلمات قليلة منه . ماذا ؟ أى شىء دار بخاطره . ولم احتج إلى كبير عناء لأفهم. ولم يكتم هوما فى نفسه طويلا . فقد رأيت زيارات جارنا بدأ يتباعدما بينها ورأيت زوجى يعمل على زيادة تباعدها بعدم ردها . وسألته يوما وقد انقضت على آخر هذه الزيارات أيام كثيرة أن يرد إلى القاضى كتابا كان قد تركه كى أقرأه . فلم يتمالك زوجى أن انفجر قائلا :

— وهل يعنيك كثيراً أن يصله هذا الـكتاب سريعاً ؟ أم تريدين بذلك أن أرد له زياراته كى أفتح له بذلك باب زيارته أيانا ؟

وصمت ، وامتقع لونى حين لفظت شفتا زوجى هذه الـكلمات بصوت متهدج . ولم تك إلا برهة حتى انصرف مخافه أن يفيض عنـه ما هو شر منها . وخلوت إلى نفسى أفـكر : أى وحى مضىء هبط على زوجى . نعم أنا أحب هذا الرجل . أحب جارنا القاضى فهو قريب منى بمقدار بعد زوجى عنى . ولـكن أى شىء فى هذا وأنا زوج

وفية كما تريد الزوجية أن أكون ؟ ماذا على زوجى إذا أحب قلبى رجلا غيره مادام جسمى فى ملكه وما دمت أسايره فى الحياة جنباً إلى جنب ، وأن تنافر قلبى وقلبه وبعد ما بين فؤادى وفؤاده ؟ ماذا يغضبه أو يثير أنانيته لتعبث الغيرة به كل هذا العبث ؟ نعم . أنا أحب هذا القاضى وكنت أتمنى أن أكون زوجا له لا لهذا الرجل الأجنبى عنى وإن خلط عقد الزواج بين جسمه وجسمى . وإن كان بيننا هذا الولد الذى أحب من أعماق قلبى ويحب هو من أعماق أنانيته .

وارتسمت صورة جارنا أمامى فثار جسمى كله . ومرت الأيام والبعد يزداد بينى وبين زوجى وإن لم تتغير معاملتى إياه ولا معاملته إياى . وخرجت يوما لأشترى من أحد الحوانيت بعض حاجتى فإذا جارنا هو الآخر بالحانوت يشترى بعض حاجته . وما وقعت عينى عليه حتى اهتز كل جسمى وخلتنى سأقع من طولى لكنى تمالكت نفسى وأهديته التحية فتقدم إلى ومد يده وسلم علىّ ، ولما آن أن أخرج عرض علىّ عربته توصلنى إلى حيث أشاء ، فترددت برهة ثم رأيتنى بالرغم منى أدعوه ليصحبنى ... إلى أين ! لا أدرى . ولكن الأنانية التى أنماها زوجى عندى أرخت العنان لعاطفتى فجعلتها تغلب وفائى من غير أن يزعجنى لذلك ألم أو يلذعنى وخز الضمير . ومن يومئذ ترعرع بنعمة الحب الصادق وجودى ، وتضاعف ضياء الحياة أمام

نظرى وصرت أسلس قيادا لزوجى وشعرت فى نفسى بشىء من الإشفاق عليه لم أكن أشعر به من قبل .

ونقل جارنا بعد سنة من القاهرة فأهدانى قبيل سفره صورته ورأى زوجى هذه الصورة يوماً فكاد يثور ثائره لولا ماظهر على وجهى من غضب مفترس أرانيه مستعدة أن أنشب أظفارى فيه إذا هو حاول أن يمزقها أو يعبث بها أى عبث . وأقسمت لأضعها فى إطار ولا جعلنها فى غرفة خلوتى . هنالك بدا له أن يأخذنى باللين لعلى أثوب إلى صوابى . وأدى به إلى ذلك أنى كنت حينئذ فى فترة حمل فكنت مضطربة الأعصاب وكان يخاف علىّ الإجهاض أن هو أخذنى بالعنف . ومن يومئذ طغت انانيتى على رقته وعلى ملاطفته أياى وان بقى جسمى فى ملكه بمقدار ما بقى روحى جاهلا روحه .

وأنجبت ثلاثة أبناء غير ابنى الأول . وانقضت سنون وكبر الأولاد وذهبوا إلى المدرسة وعلاقتى بصاحبى القاضى لم تنقطع وأنانيتى وأنانية زوجى متجاوران يتسايران فى طريق الحياة . وفى هذه السنوات كانت أنانية زوجى تثور ما بين حين وحين . شكا أمرى يوما إلى أبى لكنى كنت أخضع أنانيته دائماً بما يعبد ، بجسمى أسلس له قياده . أما أبى فلم أزد يوما حين جاء يعنفنى على أن قلت له :

— رفضت الزواج غير مرة . ثم اخترت لى أنت على أنك اخبر منى بالحياة . وهذا الاختيار قد زج بى فيما أنا فيه . فعليك حظ من التهمة غير قليل .

« ولعننى أبى فلم أحفل بلعنته . لقد بلغت بى الأنانية حد التبجح وقد انتهى زوجى المسكين بالاذعان لحكم القدر ، وظل رحمه الله مذعناً حتى اختاره الله إلى جواره وكان يخيل إلى طوال هذه السنين أنه انتهى كذلك إلى السعادة باذعانه . ولقد قمت من ناحيتى بالإذعان لكل ما يشبع شهوات حيوانيته . ولكن كشفت لى الأقدار بعد وفاته عن جانب من شعوره جعلنى أذرف الدمع سخيناً عليه وأن استعصى علىّ أن أوفق بين هذا الجانب وما كان من حرصه على كل ما فى نفسه من أنانية وضيعة مفترسة . فقد عثرت بين أوراقه على مذكرات قرأت فى أحداها ما يأتى :

« ... اليوم قابلت صديقى ... بك .. ناظر المدرسة بمكتبه لأدفع مصاريف الأولاد ، وقد أبدى لى إعجابه بنجابة أصغرهم فترقرقت فى عينى عبرة بالرغم منى لم أملك معها أن أقول : أنا واثق بأن أكبر الأولاد ابنى . أما الآخرون فلست من بنوتهم لى على ثقة .. ورأيت فى عين ... بك نظرة إنكار كأنما يقول : « وما يكرهك على أن تمسك عليك زوجك » وسارعت أنا فأجبت على نظرته بقولى :

« ما كان تسريحى زوجى ليخفف من بلائى وشقوتى ، ولـكنه كان إعلان الفضيحة والعار لها ولأبنائها ولعائلتها . لذلك آثرت أن أشقى وحـدى على أن أنشر حولى كل هذا الجو من الشقاوة ثم لا أكون بذلك أقل تعسا ولا أقل شقاء » .

« تركت هذه العبارة التى عثرت عليها فى أوراق زوجى بعد وفاته أثرا بالغا جعلتنى أذرف الدمع عليه سخينا . وجاء صاحبى القاضى فى مأتمه يعزينى فأطلعته عليها ثم قلت له: والآن وقد أصبحت حرة لك فما عساك فاعلا ؟ ! فنظر إلىّ كأنما هو دهش من سؤالى ، فقلت له : ألا نتزوج متى انقضت عدتى . إن مابيننا من حب لم تعد عليه عادية السنين جدير بأن يتوج برابطة الزواج . وكم تمنينا لو كنا ارتبطنا بها قبل أن أتزوج » .

« واستمهلنى ليفـكر فأثار ذلك دهشتى . لـكنى لم أر أن ألح وما يزال فى الوقت متسع . ولم يدر قط بخاطرى أنه منته إلى غير مادعوته إليه . فما تبادلنا خلال هذه السنين من عواطف وماعرف من صدق وفائى له لايجعله يختار على أحدا ، وما تغنى به طوال هذه السنين من الإعجاب بى بل من عبادتى كفيل بأن يزيل من نفسه أى أثر للتردد ، ولو كان الدافع للتردد رغبته إطلاقا عن الزواج ، واقتنعت أنا بهذه الحجج نخفف ذلك من الحزن الذى يدسه إلى

نفوسنا موت يقع بأعيننا ولو نزل بشخص ضعيفة رابطته بنا . وأنى يوما لأنظر لمستقبلى خيرا إذ دق التليفون وتحدث صاحبى إلىّ يدعونى لأوافيه إلى السكن الذى ألفنا كل سنوات حبنا : فأجبته على الفور .

— كيف تدعونى الآن إلى هناك ، ولم لاتحضر أنت إلى هنا .

— خير أن نكون بمنجاة من الأعين .

— ومم تخاف الآن وقد أصبحت مالك نفسى إلى أن أدخل فى ملكك .

لكنه ألح وبالغ فى الإلحاح فلم أر بدا من إجابته إلى ما طلب ، وذهبت فألقيته قد نثر ما أحب من أطايب الزهر فى كل أرجاء المكان وهيأه كعادته ليكون قدسا للحب . فلما جلست جاء إلى وجثا على قدمى وبدأ ينشر من شعر الحب ماكان يسكرنى من قبل ساعة . لكنى نظرت إليه فى دهش وقلت له :

— أحسب هذا الدور قد انتهى واحسبنا سنصبح زوجين نتبادل حبا من نوع من آخر ، ولعل سعد الطالع هو الذى هيأ لنا فرصة هذا التغيير ليكون حبنا دائما جديدا .

— إن هيامى بهذا الحب فى ذلك الوكر يجعلنى لا أرضى به بديلا فلنكن دائما كما كنا من قبل .

— ولـكن لنخدع من يا صديقى وقد مات زوجى ؟

— تزوجى من شئت . لقد فـكرت طويلا فآثرت أن أستمر فى هذا الدور .

— هذا الدور ! ولم لا تتزوجنى أنت ؟ أفـكنت هذه السنين كلهـا تلعب دوراً فأنت تخشى إذا تزوجتنى أن يلعبه غيرك على حسابك ؟

أطرق إلى الأرض إطراقه تبينت فيها هاتين الـكلمتين الصغيرتين البشعتين : ولم لا ؟ ! ـ فصعد الدم إلى رأسى وكررت السؤال فلم يزد على إطرقته . ثم شعرت كأنما حاول أن يمس قدمى أو يخلع حذائى لا أدرى . هنالك انتفضت واقفة وقلت له كرة أخرى :

— وهل يعجبك كثيراً أن تلعب دور الخـائن لأصدقائه فى أزواجهم ؟ !

ووقف هو بدوره وحاول أن يحملق فىّ . كلا ! ليس هذا قاضياً ، بل ليس هذا رجلا ، بل ليس هذا مخلوقا إنسانياً . هذا وغدٌ دنىء أبى على امرأة شريفة أضلتها الأقدار فأحبته حين لم تـكن تستطيع أكثر من أن تحبه ـ أن تـكون زوجه وأن تحمل اسمه . وهذا الفن الذى يعرف ، وهذه الموسيقى التى لها يطرب ، وهذه الثقافة التى بها يزدان ، ليست إلا

حبالات لغرض حيوانى خسيس ، وليست إلا قشوراً تخفى أنانية (أحط صنفا) من أنانية زوجى الذى خدع .

أمام ثورتى الجامحة بدأ يتوسل إلىّ لأجلس كيما نتفاهم . لكن قلبى كان قد تحطم من ساعة دخلت الوكر ورأيت إلامَ يريد أن يستدرجنى، وتحطم أضعاف ذلك حين أعلن إلىّ فى نذالة أنه لا يرضانى أنا التى استهنت بأقدس الواجبات ، واستهنت بنظرات الناس وبأحاديثهم وبما كانت تسلقنى ألسنتهم فى سبيل حبى إياه حباً صادقاً . أنا التى وهبته نفسى وذكائى وسعادتى وقلبى ووهبته حياتى لأنى أحببته !! وحدقت فيه فإذا بى أراه وكأنه مُسِخ خلقاً آخر ؛ مُسخ قرداً أو خنزيراً أو ما دون ذلك من أخس الحيوانات وأدناها . وحاول غير مرة أن يتكلم . لكننى فى كل مرة كنت أهجم عليه بالأوصاف التى كنت أراها مرتسمة على وجهه فينكمش على عقبيه متراجعاً هزيماً .. وأخيراً انتهز فترة كنت لا أتمالك فيها أن أتحدث لشدة انفعالى وقال :

ألا ينهض لى عذراً أن لا أقدم على التزوج من أم ذات أربعة أبناء؟!

واولداه !! يا للوغد !! أم ذات أربعة أبناء ! لم أتمالك نفسى لدى سماع هاته الكلمة وصحت به فى صوت ارتعد له : وأنت الذى تقولها ؟! ألا تعرف أن لك أكثر من ابن ؟ ألم تقرأ تلك الكلمة التى

تركها البائس المسكين زوجى ؟ أقسم لو أنك ترامیت على أقدامى اليوم لأكون لك زوجاً لرفستك كما أرفس أخس الحيوانات . وكيف أرضى أن تكون مثالا لأبنائى ينسجون نسجك فيكونون مثلك غدراً وحيانة ونذالة ؟ ! !

أجهدتنى هذه الثورة فشعرت برأسى يدور وخشيت أن يصيبنى الإغماء. ومخلوق هذه نفسه قدير فى أثناء إغمائى أن يرتكب أخس الجرائم. لذلك تمالكت نفسى وارتميت إلى مقعد وأشرت إليه بيدى قائلة : ابتعد عنى ودعنى وحدى . أنا بحاجة إلى لحظة سكون لا سبيل اليها وأنت أمامى . انصرف فمالى بك حاجة .. قلت هذه الكلمات فى لهجة أمر وحزم لم يستطع معها دون أن يخرج وأن يتركنى وإن بقى فى غرفة قريبة . وقمت مجهودة حتى بلغت الباب فأوثقت رتاجة ، ثم عدت إلى مقعدى ، وما كدت أجلس حتى رأيتنى انهملت دموعى وانخرطت فى بكاء خشيت أن يسمع النذل نشيجى به فيتشفى . وانقضت برهة أعادت إلىَّ شيئاً من هدوئى ، فأجلت بصرى فى جوانب الغرفة حولى لقد كان كل شىء فى هذه الغرف يحدثنى حديث الحب وأقدس صوره فى آخر مرة احتوتنى ، فمالها الساعة وكل شىء فيها بغيض كريه يحدثنى عن جرائم وجرائم توالت سنين طويلة وأنا بها مغتبطة ، وعلى النهل من وردها الأثيم حريصة ، وأية جرائم ؟ ! أحط الجرائم وأدناها ؟

إهدار طهارة العفة على مذبح الشهوة البهيمية الدنيئة ، وخيانة قدس الزوجية فى أحضان دنسة قذرة . أيما أكبر جريمة ؟ هذا الرجل الذى طردت من حضرتى ، أم أنا ، ؟ هذه الوغد الذى لا أرانى الآن دونه سفالة وحطة . ألا إن لهذا الرجل عذره أن لا يتزوجنى . وكيف يفعل وقد امتهن كلانا ..!! حرمة الزواج ، وامتهنها لا فى زلة لحظة ، ولكن فى جرائم سنين . كلا . . ليس هو أكبر منى جرما ولا أكثر منى انحطاطا .

كم أقمت كذلك ؟ ! خمس دقائق ! عشر ! ساعة كاملة ! لاأدرى ثم قمت فتقدمت إلى الباب ففتحته معتزمة أن أنحدر مسرعة إلى الخارج . . لكنى وجدته أمامى كأنه ينتظرنى . فلما رآنى حدق بوجهى وقال : .

— أتبكين ؟ !

فأشرت إليه بيدى وقلت : وداعاً . ثم تركته ونزلت فناديت عربة حملتنى إلى بيتى .

دخلت إلى البيت والشمس موشكة أن تنحدر إلى مغيبها ، فإذا أبنائى يلقوننى وما يزال فى نفس أكبرهم من الحزن لفقد أبيه ما أذهب عنه شيئاً من مرح الطفولة المتقدمة الى الصبا . ونظرت اليهم جميعاً

فازددت همًّا على همِّى . أيهم ابن لمن يعرف الناس أنه أبوه ؟ وأيهم ابن الجريمة التى اشتركت مع ذلك الوغد فى ارتكابها ؟ عرتنى هزة تناولت كل جسمى من مفرقى إلى أخمصى وأحسست كأن الحمى تلبسنى، فجلست على مقعد وأخبرتهم أنى متعبة وأنى لذلك غير قادرة على تناول طعام العشاء معهم . وذهبت ما تكاد تحملنى رجلاى من فرط الإعياء إلى غرفة زينتى ألقيت بها ملابسى . والحمى فى أثناء ذلك تزداد وأشعر بدوار يكاد يغمى عليَّ معه ، وجاءت الخادم تعاوننى على خلع ملابسى وتسألنى ما بى ؟ وماذا كان بى . حمى دوار ، اضطراب فى الأعصاب ؟ ربما كان بى هذا كله .وبينما ألبس قميص نومى ارتميت على صدر الخادم مغشياً علىَّ ، ولم أفق حتى كنت ممدة فى سريرى .

« تذكر ياصاح ذلك المرض الذى أصابنى وألزمنى الفراش أسابيع عدة . والذى كنت ترعانى فى أثنائه بزيارتك وجميل عطفك . هو هذا الذى أعقب مارويت لك . وقضيت الأيام الطوال مايكاد يعرف النوم إلى جفنى سبيلا ، لأننى كنت كلما أغمضت عينى ارتسمت أمام بصيرتى أشباح مزعجة لجرائم مروعة تقع كلها بين جدران ذلك الوكر الذى قضيت فيه لبانات حبى سنوات متعاقبة ، والذى أصبح من بعد مقابلة الوغد الأخيرة فيه مملوءاً أفاعى وعقارب تنفث سموما قاتلة . لقد كانت هذه الأفاعى والعقارب تنفث سمومها منذ اليوم الأول الذى عرفت فيه

هذا الوكر . لكنى كنت فى ضلال العماية فلم أرها ، بل حسبتها بدائع فن منثورة فى المكان ، وحسبت فحيحها أناشيد الحب ونجوى الغرام . ويدخل الحين بعد الحين أحد أبنائى يرمقنى فى عيونه البريئة الطاهرة بعين العطف فتغمد نظرته فى صدرى خنجراً ... إذ تجعلنى أسأل نفسى : أى الرجلين أبوه ؟ وتجعل الطعنة أشد وقعاً إذا رأيته ثمرة غرام غير مشروع . كانت هذه الآلام النفسية أشد قسوة من كل آلام المرض . وكنت أحسبها تنتهى بمعاونة المرض على البلوغ بى إلى خاتمة ما كان أشهاها إلى نفسى : إلى الموت . لكننى أحسست بنفسى أتمائل إلى الشفاء فأيقنت أن الله يريد أن أذوق من عذاب الضمير ما أكفِّر به عن ثورتى عليه وخيانتى لأقدس الروابط . ابتهلت وأطلت الابتهال، دعوت الله أن يغفر لامرأة ضعيفة خاطئة كى تقوم على تربية أبنائها بكل ماوهبها الله القادر من ذكاء وحسن رعاية . لكن هؤلاء الأبناء أنفسهم كانوا بعض العذاب الذى أعد الله لى . فرجوت أن أنقطع إلى خلوة أديم فيها العبادة أكفر بها عن ذنبى . لكنى سمعت من أعماق نفسى صوتاً ينادينى : أن ذنبك لا كفَّارة عنه إلى أن يفنى الألم هذا الجسم الذى استعذب حلاوة القبلات الآثمة حين نسيت أنت أن لله عيناً لاتنام . وفيما أنا فى هذا العذاب أقاسى أهواله اتصل بى مايقول الناس عنى فابتسمت إشفاقاً : أى شىء من كل مايستطيعون أن

يقولوا يوازى برهة مما أعانى . وأسأل نفسى : أيشعر الوغد بشىء مما أشعر به ؟ أم هو فخور بما جنى مغتبط بأن يلبس وسامه ويجلس ليقضى بين الناس زاعماً أنه يقيم العدل على الأرض وقد كان معى أفحش الظالمين ؟ ولـكنى مالى وشعوره . إنه رجل ... وأنانيته لاتعرف مثل عذابى لأنه لايرى آثار جريمته تلاحقه أينما ذهب كما تلاحقنى ، ثم أنظر إليهم بعطف ومحبة وإعزاز . لايرى هؤلاء الأبناء الذين لايقول أحد إنهم أبناؤه ، ولـكن الناس جميعاً يعرفون أنهم أبنائى .

« وبرئت من سقمى وعادت إلىّ قوتى فحاولت أن أشغل نفسى لعل ذلك يقوم حجاباً بينى وبين هذا الماضى الذى يجثم على صدرى . وبرغم محاولاتى لم أنجح ولم يسكت صوت ضميرى ، وكان ما أتظاهر به أمام الناس من سكينة أردُّ بها عنى نظرات الشامتين أشد إلحاحاً فى تعذيبى من كل شماتة بى . وما أزال حتى اليوم أفـكر . وما أزال أضرع إلى الله أن يخفف عنى العذاب بعد أن قضيت الشهور تلو الشهور أكفّر عن خطيئتى ثم أراها بعد ذلك كله ماثلة أمامى فى صورة هذه الأفاعى والعقارب التى تملأ الوكر وتنفث سمومها فيه وتملأ بفحيحها جوه » .

سكتت زهيرة عن هذا الحديث برهة أمسكت على أثرها برأسها ثم قالت :أشعر بصداع . ودقت الجرس لخادمها وطلبت إليها كوب ماء .

فلما خرجت الخادم لتلبي طلبها نظرت إليّ وقالت :

— ألا ترانى وذلك شأنى ، كفّارة الحب. ؟ !

ووضعت فى الماء المسحوق الأبيض الذى أخرجته من حقيبتها ثم اعتذرت بحاجتها إلى الراحة فاستأذنتها وجئت إليكم . وهأنذا الآن قد قصصت حديثها عليكم .

* *

أصاح الأصدقاء لحديث زهيرة وكلهم آذان . فلما فرغ حمزة من قصصه جعلنا ، وكلنا مأخوذ حزين ، نتبادل العبارات فى غدر القدر وضعف الإنسان وباطل كبريائه . وقضينا فى ذلك وقتاً غير قليل قصّ بعضنا فى أثنائه قصصاً،وتحدث البعض بأحاديث . وإنا لفى سمرنا إذ دق التليفون وسأل المتكلم فيه عن حمزة ، وتناول حمزة السماعة وأجاب السائل .. ثم سمع له وأساريره تنقبض شيئاً ووجهه يتجهم من الهم أضعاف مارأينا عليه ساعة جاء الينا . فلما أعاد السماعة إلى مكانها سألناه : ماذا ؟ وأى أمر عساه ؟ فترقرقت فى عينه دمعة لم تبد ولم تنحدر ، ثم أجاب :

— انتهى ! ماتت كفارة الحب ! !

ووجم برهة سادنا جميعاً فى أثنائها صمت مجاملة ، أو صمت وجل من الموت وذكره ... وعاد حمزة الى ملك نفسه ثم قال :

— مسكينة هى البائسة التى قضت نحبها بإرادتها كفارةً لذنوب لم تكن عليها أثقل تبعتها . لقد كان هذا المسحوق الأبيض الذى وضعته فى الماء سمًّا . وهذه خادمتها تخبرنى أنها لم تلبث طويلا بعد أن غادرتها لموعدكم هنا حتى بدأت تتلوى من فرط الألم ونرفض مع ذلك استدعاء طبيب بدعوى أنه مغص سرعان مايزول ! ولما لم يبق لها باحتمال الألم طاقة نودى الطبيب من غير علمها . فلما بصرت به داخلا عليها يسألها عن حالها قالت له فى لهجة المنتصر :

— لافائدة ياسيدى الطبيب . لم يبق بى الى علاجٍ من حاجة . إننى أرى الخاتمة تدنو . وإذا استغرق مابقى علىَّ أن أعانى من ألم سويعة أو بعضها حتى يتم السم الذى تناولت واجبه . فهجرة الناس جميعاً هى الراحة الكبرى ، وهى أكبر انتصار لى عليهم وعلى الحياة .

وأمسك حمزة طربوشه بيده وأردف :

— والآن أستأذنكم لأداء الواجبات الأخيرة لهذه الضحية التعسة . لقد انتصرت حقاً على الناس وعلى الحياة . لكنها لم تنتصر على أبنائها .

وغادرنا منصرفاً إلى واجبه المقدس ونحن نرمقه بعيون ذاهلة ملأها حديث زهيرة وما أعقبه من موتها هماً وألماً .

ميراث

كان مشرِّع ذلك العهد فى مصر يجيز الوقف الأهلى ، وكان فقهاؤه يقررون أن شرط الواقف كنص الشارع . فكان كثيرون يتخذون من نظام هذا الوقف وسيلة للتخلص من أحكام الميراث الثابتة فى القرآن الكريم . يحرمون به ورثتهم من يريدون حرمانه ، ويتخطون به أحكام الوصية . إذ كانت لاتجيزها لوارث إلا إذا أقرها سائر الورثة ، ولا تجيز الوصية لغير وارث فى أكثر من الثلث ، لقوله عليه السلام : « الثلث ، والثلث كثير ؛ لأن تترك أولادك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » .

وشاعت فى ذلك العهد عند ذوى اليسار ، وعند المتوسطين كذلك ، فكرة حرمان البنات من التركة ، أو جعلهن تبعاً لإخوتهم الذكور ، يبلن منهم نفقة تكفين العيش المتواضع . ذلك أنهم كانوا يعتبرون أن البنات يخرجن من الأسرة حين يتزوجن ، والملك ملك الأسرة فلا يجوز أن يأخذه أزواج البنات ، أما والشرع يجيز حرمان

البنات بالوقف ، فلا وزر عليهم فى حرمانهن . وأزواجهن ملزمون شرعاً بالإنفاق عليهن ، فإن لم يتزوجن ، فلهن على إخوتهن الذكور نفقة تكفل الكفاف !

وكان عاكف بك من المؤمنين بحرمان البنات إيماناً عميقاً ، لذلك رأى أن يقف أملاكه الواسعة على الذكور من ذريته . فلما كان فى المحكمة الشرعية لتحرير وقفيته ، مسّ قلبه شىء من الرحمة ، فنص فيها على أن يكون للإناث من الذرية نفقة يدفعها لهن إخوتهن الذكور . ولم يرد بخاطره أن يورد نصاً على ما يجرى إذا كان الورثة كلهم إناثاً ، اقتناعاً منه بأن ذلك لا يمكن أن يحدث فى أسرته ، أو نسياناً منه لهذا الاحتمال !

وتوارث ذريته هذا الوقف جيلا بعد جيل ، ولم يحدث بالفعل أن خلا الورثة فى الأجيال الأولى من واحد أو أكثر من الأولاد الذكور يعيش أخواته البنات فى كنفهم ، ويتمتعن برعايتهم وعطفهم . وتكاثرت فروع الأسرة على الأجيال ، وحدث أن مات الذكور جميعاً قبل الإناث فى أحد فروعها ، فاختصم الذكور — من فرع آخر — هاتيك الإناث ، يطلبون الانفراد بريع الوقف كله ، نزولا على شرط الواقف . وأقر القضاء وجهة نظر هؤلاء الذكور

ولم ينل الإناث الباقيات من الفرع الذى مات ذكوره كبير ضرر ؛ فقد كنّ فى عصمة رجال ذوى يسار ، فلم يزعجهن هـذا الحـكم ، وإن أزعج أزواجهن بعض الإزعاج .

* * *

وتعاقبت الأجيال كرة أخرى ، ثم أخذت تنقرض شيئاً فشيئاً ، حتى آل معظم الوقف إلى الشاب المهذب الرقيق « عبده عاكف » . وكان طبيعياً أن يعيش هذا الشاب عن سعة ، وألا يعنى نفسه بأمر غده ، وله من إيراد الوقف ما يغنيه عن عمل وكل عناء . وطمعت كثيرات من بنات طبقته فى الزواج منه، ثم وقع اختياره على «هيفاء» مما دلّ على حسن ذوقه وتقديره . فقد كانت هيفاء — إلى جمالها — تعدله فى كرم النسب ، وإن لم تـكن تعدله فى سعة الثراء . صحيح أنها ورثت عن أبيها ما يكفل لها عيشاً كريماً ، لـكن ما ورثت لم يكن يكفل أكثر من هذا العيش الـكريم .

وقبل أن تدور السنة أنجب الزوجان طفلة بارعة الجمال . اغتبطا بها أشد الاغتباط . ولم يدر بخاطر أيهما ذكر لوقف عاكف بك وشروطه . فهما لا يزالان فى إقبال الشباب : وهما يذكران ما يجرى على ألسنة النساء « خير كن من بشرت بأنثى » . لذلك خلعت الأم

على طفلتها من ألوان العناية والرعاية ما زاد الأب تعلقاً بها ، وحبًّا لأمها . وأخذت الصغيرة تنمو وتكبر . وتملأ البيت على أبويها يضحكاتها ولعبها وعبثها ، فتزيدهما تعلقاً بها ، ورعاية لها .

وبعد سنتين وضعت الأم الشابة بنتاً ثانية،فلم يغير ذلك من مرح الأسرة وغبطتها . فالشباب لا يسهل أن تشوب الهموم أجواءه . إن أمامه فى الحياة أملا طويلا عريضاً ، فما يفوته اليوم يمكن تحصيله غداً . ولم تبلغ « هيفاء » بعد الثالثة والعشرين من عمرها ، ليدور بخاطرها ما قد يخبىء الغد بعد عشرين سنة أو ثلاثين سنة من أيام زوجيتها السعيدة الهنيئة . أما أمها فلم تلبث حين رأت الوليدة الثانية أن ذكرت وقف عاكف بك وشروطه ، وهى تستعجل الغلام الذى تطمئن به إلى أن ابنتها وحفدتها ، سيكونون فى رخاء من العيش ، يستمتعون من رغد الحياة بخير أنعمها . ولقد جاوزت هذه الجدة الشباب إلى الكهولة ، فهى حريصة على أن تطمئن فى حياتها على مستقبل هؤلاء الحفدة الأعزاء !

ولم تذكر لابنتها ما دار بخاطرها ، لكن ما ارتسم على محياها ساعة تنفست هذه الطفلة الثانية ريح الوجود ، لم يعبر عن شىء من الغبطة ، وإن دفعها حنانها الطبيعى للعناية بالطفلة أشد العناية !

وبعد سنتين كذلك ، أنجبت هيفاء طفلة ثالثة ، روّع مولدها قلب جدتها ، حتى تمنت لو لم تولد . وبلغ روع الجدة حد الثورة حين أنجبت هيفاء بنتاً رابعة بعد سنتين أخريين ، فأنحت باللائمة على ابنتها ، وألقت عليها وزر ماحدث ، وكأن للأم الخيار فى إنجاب البنت أو الولد .

وبكت هيفاء ، ثم قالت تعاتب أمها : « هذه خيرة الله يا أماه ، وأنا لم أبلغ بعد الثلاثين ، ورحمة الله واسعة . . »

وحملت هيفاء للمرة الخامسة ، وإنها لتعانى سقم الحمل ، إذ مرض زوجها فجأة مرضاً لم يمهله أياماً حتى اختطفه الموت من بين أحضانها . وحزنت الشابة عليه أشد الحزن ، وذكرت يتم بناتها ، ونظرت إلى مستقبلها ومستقبلهن ، بعين لا ترقأ لها دمعة . أما أمها فأفزعتها هذه الوفاة ، لا حزناً على الزوج الذى مات ، بل إشفاقاً أن تلد ابنتها بنتا خامسة ، فلا يكون لهاتيك الصغيرات من وقف عاكف بك نصيب ، ولا يكاد ما ورثته أمهن عن أبيها يكفيهن عيش الكفاف .

وزاد فى فزعها وانزعاجها ما ترامى إلى سمعها من أن سلائف ابنتها يبذلن النذور لأولياء الله الصالحين أن تلد هيفاء بنتا ليعود الوقف إلى أزواجهن ، وليستمتعوا بإيراده الوفير !

ماذا عسى أن يكون مصير هيفاء وبناتها إذا استجاب الأولياء لنذور هؤلاء الأقارب ؟ وهل تدع هذه الجدة الأمور للأقدار والرزاق هو الله ؟ أم أن عليها لهيفاء وبناتها واجبا أن تنقذهن من مصير مظلم بأية وسيلة ممكنة ؟ !

والوسيلة لإنقاذهن أن تلد هيفاء ولدًا يحفظ الوقف له ولها ولأخواته البنات. لابد إذن من أن تلد هيفاء ولدا . والعلم لم يصل بعد إلى تعيين النسل ، فالأمر لا يزال فى يد القدر . أولا تستطيع هذه الجدة أن تكفل لابنتها ما لا يكفله العلم ، فيكون مولودها ذكرًا بأية حال ؟ هنا لك تنازعها عاملان : الوازع الدينى ، الذى يجعل معاندة القدر ذنبا يجزى مجترحه فى الحياة الآخرة . وقد ينال عنه جزاء قاسيا فى الدنيا . ووازع المحافظة على نعمة الحياة لهاتيك القوارير الناعمات ، اللاتى لم يعرفن خشونة العيش قط . وانتهى هذا التنازع إلى غلبة الوازع الدنيوى ، فلابد أن تلد هيفاء ولدا ذكرا بأية حال !

* *

وولدت هيفاء ولدا ذكرا ، فتصايح أقارب زوجها بأن أمها دست فى فراش الوضع غلاما ، وذهب بعضهم إلى أن الأم الشابة لم تلد ، بل لم تحمل ، وأن هذا الطفل الغلام دسته أمها فى فراشها للاستيلاء على الوقف وريعه !

ورفع هؤلاء الأقارب الأمر إلى القضاء ليحكم بأن الطفل ليس ابنا لعبده عاكف ، فلا حق لبناته فى وقف جدهن ، إذ ليس لهن أخ يعصبهن ويعصمهن من فقر مدقع !

وسمع القضاء الدعوى ، فلم يأذن بما طلبه أقارب الزوج المتوفى ، من تحليل دم الغلام الطفل ، وتحليل دم أخواته البنات والمقارنة بين هذه التحاليل . وسبّب رفضَه هذا الطلب بأن تكوين الدم قد تتغير طبيعته على السنين بتغير أحوال الصحة والمرض ، وبتقدم السن ، وعلى ذلك قضى بأن الولد للفراش ، وأن « عمر » — فكذلك سمت هيفاء ابنها — ابن شرعى لعبده عاكف !

وقال أقارب الزوج يومئذ : إن القضاة غلبهم برهم ورحمتهم بتلك الصغيرات المحتاجات إلى الأخ العاصب ليظل إيراد الوقف لهن ولأمهن. وكذلك ثبت للبنات حقهن فى العيش الرخىّ الكريم .

واغتبطت هيفاء ، واغتبطت أمها لهذا الحكم ، وصار « عمر » موضع إعزازهما الذى لاحد له ، وموضع إشفاقهما كذلك أن يصيبه مكروه يضيع على البنات الأربع مورد رزقهن . لذلك كانتا تتناوبان العناية به والسهر عليه ، ولا ترضيان أن تدعاه إلى مرضع أو مربية ، خشية الأقارب الذين طمعوا فى الوقف ، وقاضوا الأم للاستيلاء عليه . . أن يعملوا على اختفاء الطفل ، أو على موته !

وبالغت هيفاء فى إعزاز عمر ، مبالغة تجاوزت حتى جنون الأمومة ، ودهش لهذه العناية من كانوا يقسمون أنه ليس ابنها ، وإن أمها دسته فى فراش وضعها ، وكأنما نسوا إنه إن لم يكن ابن أحشائها حقا ، فإنه الروح والحياة لهاتيك البنات الأربع ، اللاتى يصبحن لولاه فى حكم المعدومات ، فيعشن عيشا خشنا ، لم تألفه هيفاء حياتها ، ولم يدر بخاطرها فى يوم من الأيام أن يكون نصيب ذريتها !

وهل تراها ، لولا الرجاء فى رغد الحياة ونعمائها ، كانت ترضى أن تتزوج عبده عاكف ؟

صحيح أنها كانت تحبه ، لأنه كان مهذبا ورقيقا ، لكنها تحبه كذلك ليساره ، فلا تخشى خشونة عيش لها ولا لذريتها فى كنفه .

* *

وبدأ الغلام يكبر بعين أمه ، وأكبر همها أن تجعل منه ، وهو الذى يشتبه بعضهم فى نسبه ، رجلا جديرا باسم زوجها وبها . بل لقد طمعت حين توسمت فى عينيه بريق الذكاء ، فى أن تراه يوما عظيما يشار إليه بالبنان . لذلك لم تضنّ لحسن تربيته بشىء . كانت تلبسه منذ صباه الباكر أحسن ملبس ، فلما آن له أن يذهب إلى المدرسة اختارت له أحسن مدرسة فى العاصمة . واختارت له كذلك مربيّ

تشرف على تعليمه وتنشئته . ثم إنها عودت أخواته البنات على أن ينظروا إليه نظرة إكرام وإعزاز ، طامعة أن يزيد ذلك فى نفسه محبتهن ، وفى نفوسهن محبته ، وأن تجعل منه ومنهن أكرم أسرة تعتز بها كهولتها ، ويخلد بها اسم الرجل الذى أحبته ، والذى غاله الموت وهى فى عنفوانه !

وكان الغلام فى بوادر نشأته رقيقاً غاية الرقة ، لأنه كان الذكر الوحيد بين إناث ست : أخواته الأربع وأمه وجدته . لكنه ما لبث حين اختلط بالتلاميذ فى المدرسة أن زايلته هذه النعومة ، وأن حلت محلها خشونة لا تخلو من عنف . ولم تكن أمه عنيفة ، ولم يكن أبوه عنيفاً . وبلغ من عنفه حين بدأ يحس بقوة عضلاته أن تبدلت معاملته لأخواته ، وإن لم تتغير معاملتهن له ، فكان يقسو بهن ، وكان يرفع يده أحياناً عليهن ، وكان يضطر الأم للتدخل أحياناً بينه وبينهن .

ولم تكن هيفاء تضيق بعنف عمر ، أو تزيد فى تدخلها بينه وبين أخواته ، على مألوف ما تبذله الأم من نصح يشوبه العطف والحنان .

وكانت تلتمس له من العذر أن يتخطى الصبا إلى الشباب إيذاناً بإقبال الرجولة ، فكانت تنسب إلى طيش الشباب كل ما يقع منه ، وكان لها عذرها عن هذا التسامح معه . فلو أنه لم يكن ابنها الذى

أنجبته من لحمها ودمها فهو ابنها الذى ضمته إلى صدرها رضيعاً ، ثم أنشأته من يومئذ إنشاء ربط بينه وبينها بمثل رابطة البنوة والأمومة !

ونحن نحب كل ما نربيه من أعماق نفوسنا وحبات قلوبنا . وعمر — إلى ذلك — هو وارث عبده عاكف ، وهو الذى عصمها وعصم بناتها الأربع من متربة ما كان أفظع شبحها يوم توفى زوجها ، ويوم خيل اليها أن الغد يخبىء لها عيلة إن تحققت ناءت بها ، وأفسدت عليها كل حياتها !

ولم يقف عنف عمر وطيش شبابه عند القسوة بأخواته ، بل بدأ هذا الطيش يصرفه عن دراسته ، فيؤدى ذلك إلى رسوبه فى امتحاناته ، ويضيع على هيفاء أملها فى أن تراه رجلا عظيما . لكنها بقيت مع ذلك شديدة البرّ به والعطف عليه ، ترى فيه رب البيت ، والوارث لاسم أبيه ، ولوقف عاطف بك ؟

وأخذت نزوات عمر تزداد ، وتدفعه إلى ألوان من الطيش ، كانت هيفاء تحتملها فى صبر وسكون ، وتدعو الله أن يكفى ابنها شر أولاد الحرام من الجنسين . لكنها ضاقت ذرعا بهذا الطيش ، حين علمت أن عمر يجتمع بطائفة من أقارب زوجها ، ويلهو معهم . ولم يكن ضيقها بما ينفقه فى هذه الاجتماعات ، بل كانت تخشى أن يتخذ أقارب زوجها من اجتماعهم بعمر وسيلة لإفساده عليها وعلى بناتها .

وبناتها فى سن الزواج ، وهن فى حاجة ليتزوجن إلى عطف أخيهن ورعايته وحسن سمعته !

وفكرت هيفاء فى الأمر طويلا ، كما فكرت فى انصراف ابنها عن دراسته ، فرأت أن تبعث به إلى أوربا ، ليتم الدراسة بعيدا عن أقارب زوجها ، ولتزوج هى بناتها فى أثناء غيابه ، وتجهزهن الجهاز الواجب لمثيلاتهن !

واغتبط الفتى بهذا السفر ، لا حرصًا على النجاح فى دراسته ، بل لما تخيله فى أوربا من ألوان المتاع التى ترضى نزق شبابه ، بعيدًا عن رقابة أمه . وكان أكبر همه منذ استقر فى أوربا ، بالمدينة التى قبلته مدرستها ، أن يحصل من أمه على أكبر قسط من المال ، يرضى نزوات طيشه . أما المدرسة فكانت عنده أمرًا ثانويا ، كل غايته منه أنه حجة لبقائه بعيداً عن كل رقابة .

وأرخى الفتى العنان لنزغ الشيطان ، وجعل ينفق عن سعة فى ألوان من اللهو الظاهر والخفى ، ليبدو أمام زملائه وصديقاته فى مظهر الغنىِّ المترف المطمئن إلى غده . المستغنى عن كل عمل يحصل منه على رزقه !

وما حاجته أن يعنِّىَ نفسه ، للحصول على درجة علمية ، وقد أنبأه أقارب أبيه بأن الوقف يكفل له عيش الترف الذى يطمع فيه . وأنه

متى بلغ رشده أصبح المتصرف فى هذا الوقف بما يهوى ، يعطى أخواته البنات كفافهن ، ويبعثر الذى يبقى بغير حسيب ولا رقيب !

ولم يبق بينه وبين سن الرشد غير سنة وبعض السنة ثم يكون بعد ذلك السيد الذى لا يراقبه أحد ، ولا يحاسبه أحد !

وإنه لسادر فى ملاذه وأهوائه ، إذ جاءته من مصر رسالة أزعجته عما هو فيه ، فقد جاء فيها أن أمه تستدين على إيراد الوقف استدانة تكاد تستغرق هذا الإيراد لسنوات عدة مقبلة ، وأن مستقبله يقتضيه أن يعود إل مصر محافظة على ماله ، فإن فعل وبدا له بعد ذلك أن يرجع إلى أوربا ، فالشأن شأنه . أما أن يغفل الأمر فسيجد نفسه عما قليل مستغرقا فى الدين . وذكر صاحب الرسالة أنه على استعداد لمعاونته فى إنقاذ الوقف جهد المستطاع !

وكان صاحب الرسالة أحد الأقارب الذين قاضوا هيفاء حين مولد عمر ، منكرين نسبه لأمه ، فلا حق له من ثم فى الوقف . ولم يفطن عمر إلى ما لعلّ صاحب الرسالة يريده من انتقام من هيفاء . لأن جزع الفتى على ألا يجد المال الذى يرضى أهواء شبابه ، أنساه التفكير فى كل شىء ، غير المال وما يتيحه له من متاع !

وكتب إلى أمه يريد العودة إلى مصر ، فلم تلبث حين تلقت خطابه أن بعثت إليه بنفقة العودة ، مغتبطة بها ، ظنا منها أن عمر سئم

أو بالأنه لم ينجح فى دراسته ، واقتناعاً منها بأنه متى عاد استطاعت توجيهه فى الحياة ، توجيهاً ينفعه وينفع الأسرة كلها !

* *

لم يلبث عمر — حين بلغ القاهرة — أن ذكر لأمه أنه يريد أن يتولى إدارة الوقف بنفسه ، وأن يعرف حساب الوقف وما له وماعليه. ودهشت الأم لما طلب ، وخيل إليها أنها تستطيع برقتها وحنانها أن ترده إلى حمى البنوة المطواع . وأغدقت عليه من هذا الحنان وهذه الرقة مايمتلىء به صدرها الذى لا ينضب معين عطفه . لكنه أصر على أنها إن لم تجبه إلى طلبه استعان عليها بأقارب أبيه ، وذكرها بأنه قارب سن الرشد ، وبأنه صاحب الوقف والمتصرف المطلق فى إيراده ، فإن لم تنزل على إرادته اليوم ، فستنزل عليها بحكم القانون عما قليل ، ويومئذ يفقد أخواته البنات عطفه عليهن بسببها ، ويحاسبها الحساب العسير عن إدارة الوقف كل هذه السنين .

سمعت الأم المسكينة هذا الكلام فأفزعها ، وعادت بذاكرتها إلى يوم زهوها بأنها أنجبت هذا الغلام ، وكفلت بمولده مستقبل بناتها . ونشرت أمام بصيرتها ما احتملت عشرين عاما حسوما ، منذ مولده إلى اليوم الذى وجه فيه هذا الإنذار ! . . ذكرت مقاضاة

أقارب أبيه إياها وهو مايزال فى قماطه ، وما كانت نفسها تضطرب به إذ ذاك من مخاوف لم تكن خسارة الدعوى أيسرها . فلو أن القضاء لم يحكم ببنوة عمر لعبده عاكف ، لتعرضت من قالة الناس لأضعاف ماتعرضت له ، ولتعرضت أكثر من ذلك لبأس قانون العقوبات وصرامته . ثم ذكرت حدبها عليه ، ورعايتها إياه طفلا ، بأكثر مما ترعى أى أم ابنها ، لأنها كانت ترعى فيه أخواته البنات كذلك . وذكرت ليالى سهرها إلى جانب سريره مريضا ، وهى فى حيرة وقلق تأخذ المخاوف بخناقها ، إشفاقا عليه وعلى أخواته . وذكرت من دقائق ما احتملت فى سبيل تربيته وتعليمه طوال هذه السنوات العشرين ، ما أثار دهشتها !

كيف سولت له نفسه ، بعد هذا كله أن يخاطبها باللهجة التى خاطبها بها ؟ . . ولو أن وقف عاكف بك لم يضع فى يده كل هذا السلطان ، لرعى فى حقها حرمة الأمومة ، أو حرمة التربية على الأقل !

* *

استدار العام وبلغ عمر رشده . فلم يبطىء أن رفع الدعوى على أمه يطلب تسلم الوقف ، وتقديمها الحساب عن سنى إدارتها ، وتسلمت هيفاء إعلان الدعوى ، فتولتها الحيرة أى موقف تقفه منها : أتستسلم وتسلم الوقف لابنها مقابل إقراره حسابها ؟ . ولكن هبه رفض بتأثير

أقارب أبيه ، وذكر فى المحكمة ما عرضته عليه ، أفلا يضعف ذلك مركزها أمام القضاة ؟.. وهبه قَبل وتسلم الوقف ، واستولى على إيراده ، ثم لم يعطها ولم يعط أخواته ما يكفل لهن العيش الكريم ، أفتقاضيه يومئذ ؟

وأدت بها هذه الحيرة إلى ثورة نفسية ، قالت على أثرها فيما بينها وبين نفسها : ومالى لا أقف منه اليوم ما وقفت من أقارب أبيه بالأمس .. فأناضل عن بناتى ، وهن أشد اليوم حاجة إلى نضالى عنهن بالأمس والقدر الذى أنصفنى بالأمس ، سينصفنى إلى شاء الله غداً ، وسينصرنى على هذا العاق ، الذى جحد كل حق للحنان ، وللعطف ، وللتربية ، وللأمومة ؟

واستشارت محاميها ، فأقرها على رأيها . فلما كان موعد نظر الدعوى ، طلب إلى المحكمة أن تأمر بضم دعوى النسب التى رفعت على هيفاء ، فأنكر بعضهم فيها نسب عمر إلى أبيه . وأجاب القضاء هذا الطلب ، وقدمت هيفاء الحساب عما أنفقت على عمر وعلى أخواته طوال هذه السنين . ودهش القضاء حينما اطلعوا على ملف دعوى النسب . وتساءلوا فيما بينهم : أكان عمر يقف من هيفاء هذا الموقف لو أنه كان ابنها حقاً ؟ .. لكن القضاء حكم من قبل بثبوت نسبه لأبيه

حكماً لاسبيل إلى إعادة النظر فيه . وهيفاء قد بذلت من حنانها وروحها ، لهذا الذى جحد فضلها ، وكفر بنعمتها ، ما يجعلها جديرة بكل عطف . لـكن لعمر فى الوقف حقاً لا يستطيع أحد إنكاره ، والقضاة يستطيعون اعتماد الحساب الذى قدمته ، أمه فأما إن تسلم الوقف وأساء معاملة أخواته ، فماذا يكون مآلهن ؟

ازداد القضاة حيرة حين علموا أن عمر هجر بيت أمه ، من يوم أن بلغ رشده ، ووقف منها موقف خصومة عنيفة ، أعانه عليها أقارب أبيه ، الذين أنـكروا من قبل بنوته .

فماذا يفعل هؤلاء القضاة ليـكون حكمهم عدلا بين الجميع ، محققاً مصلحة الجميع ؟

وتحدث الناس وقتئذ إلى أن المشرع يعتزم إلغاء الوقف الأهلى ، ليمنع عبث العابثين بأحكام الشرع فى الميراث والوصية . ورأى القضاة فيما سمعوا متنفساً لهم ، فأجلوا دعوى عمر ثم أجلوها ، حتى صدر قانون بإلغاء الوقف الأهلى . وعند ذلك أصدروا حكمهم ، باعتبار ما آل من الوقف إلى عبده عاكف تركة تقسم بين أولاده جميعاً ، وترثه فيها زوجته . أصدروا هذا الحـكم وكانوا يودون لو استطاعوا حرمان هذا العاق أمه من كل التركة . لـكن الحـكم الأول بثبوت نسبه جعل ذلك مستحيلا ؟

واغتبطت هيفاء بهذا الحكم ، واطمأنت به على مستقبل بناتها ، لكنها بقيت حاقدة على هذا الابن ، الذى نسى كل برها وحنانها ، وحاول أن يستأثر دون أخواته بوقف حرّم ما أحل الله ، ونقض ما أثبت كتاب الله !

ولم تكن هيفاء تأبى حين يجرى حديث حياتها مع عمر أن تقول: « إنى أكرهه . ولكن العِرق دساس ! » .

عرق من ؟ !.. وهل كرهت أم ابنها من أجل بناتها ؟ ! أم « إنَّ من . . . وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروه » .

يد القدر

كانت هند فى العشرين من سنها ، حين زوّجها أبوها من موظف صغير فى الدرجة السابعة الكتابية، ولم تعرف هند زوجها عباس فضل، حتى اجتمعت معه تحت سقف واحد ، ومع ذلك اغتبطت بهذا الزواج وفاضت بها المسرة لأن الزواج فى نظرها غاية كل فتاة ، كما أن الموت غاية كل حى ، ولأن أمها توفيت ، قبل عدة سنوات ، فتزوج أبوها وأنجب من زوجته الثانية بنين وبنات ، اختصهم بكل عطفه ... ولم يأب على زوجته أن تتخذ هند معاونة لها فى خدمة البيت ، تطهو طعامه ، وتتولى نظافته ، وترعى أخواتها الأطفال، وتنفق ليلها ونهارها فى تنفيذ أوامر زوج أبيها .

وكم تمنت اليوم الذى تهب فيه نفسها لخدمة بيتها هى ، لا لخدمة زوج أبيها وعيالها ،لذا رأت فى زواجها منقذاً لها من هذه الحياة الشاقة التى كانت تحياها ، دون أن تجد من العطف والحنان ، ما يعوضها عن قسوتها وشدتها .

وأعطت هند زوجها كل قلبها ، منذ اليوم الأول ، ولم يكن ذلك لأنه وقع من نفسها ساعة رأته فعشقته لأول نظرة، بل لأنها رأت فيه يد القدر ، التى انتشلتها من بأسائها ، وفتحت به أمامها باب الأمل فيما يسمونه السعادة .

ولم يزعجها أن كان عباس موظفاً صغيراً ، وأن مرتبه الضئيل كان لا يكاد يكفيها العيش الخشن ، فالصغير يكبر ، وضيق العيش طارىء يزول بالجد والاجتهاد ، فإذا هى جعلت من نفسها ومن بيتها جنة نعيم لهذا الموظف الصغير ، فسيمكنه هذا من الجد فى عمله ، ومن إرضاء رؤسائه ، ومن الترقى درجة بعد درجة . ويومئذ ينفرج الضيق وتعيش فى بيتها أكثر رخاء مما كانت فى بيت أبيها ، بل إن هذا الرخاء المادى ، الذى تعتقده اليوم فلا تجده ، لأيسر شأناً عندها من طمأنينتها فى قلب زوجها .

وبادلها زوجها منذ اشتركا فى الحياة، حباً بحب، وإخلاصا بإخلاص، وكيف لا يفعل وقد أتاحت له بمرتبه الضئيل ألواناً من النعمة لم يكن يحلم بمثلها قبل زواجه ؟. وجعلت من بيته سكنا هانئا ، يغنيه بعد الفراغ من عمله عن كل ما سواه ؟

ومكنه ذلك بطبيعة الحال من التوفر على عمله فى وظيفته ،

بما أرضى رؤساءه ، وجعله بعد عام ، أو أقل من عام ، يطمع فى الترقية إلى الدرجة السادسة !

* *

وتتابعت الشهور ، وهند تزداد كل يوم متاعا بهذه الحياة الراضية المتواضعة ، على أن سحابة من القلق بدأت تندس إلى نفسها حين قارب العام أن يستدير ، ثم لم يتحقق رجاء أنوثتها ! . فقد كانت تتوقع أن يبشرها شهر من أشهر هذا العام بأمومة يطمئن لها زوجها ، وتشعر معها بأن هذا البيت الصغير ستضيئه أنوار الطفولة البريئة ، وتجعل منه مقر أسرة ، وتسعد هى ، ويسعد زوجها ، فلما خذل تعاقُب الشهور رجاءها ، بدأ مرحها يخبو ضياؤه ، وبدأ يرتسم على جبينها الجميل أثر القلق الذى ساورها .

ولاحظ زوجها همها ، وحدس سببه ، فلما أفضى به إليها ، انحدرت من عينها دمعة ، تولاه الألم لمسيلها ، فربت على كتفها بيد كلها الحنان والحب ، وقال لها :

— فيم تستعجلين ياعزيزتى ؟ . إنك تعلمين أن مرتبى لا يكاد يكفينا لولا حسن تدبيرك وما تبذلين من جهد لتبعثى إلى حياتنا مانشعر به من نعمة ورضا ، ولعل رحمة الله بنا هى التى أرادت ماأثار قلقك ، وإنى لأطمع فى ترقية قريبة ، تعاوننا إذا رزقنا الله الخلف

الذى ترتقبين ، على العناية به وحسن تربيته ، وأنت لاتزالين بعد فى شبابك الباكر ، فلا تجزعى واصبرى . إن الله مع الصابرين .

وازداد عباس بعد هذا اليوم عطفا على زوجته ، مما أنساها قلق أنوثتها ، وجاءت الترقية التى كان يطمع فيها ، وأتاحت للزوجين شيئا من سعة العيش ، جعلت بيتهما الصغير أكثر ابتساما وجعلت عباسا أكثر حرصا على أن يؤنس وحدة هند فيه ، ودفعته إلى مزيد من العناية بعمله فى ديوانه ، مما ضاعف رضا رؤسائه عنه ، وتقريبهم إياه ، ومما زادهم ثقة به ، وزاده ثقة بنفسه .

وكان عباس يشعر فى أعماقه شعوراً قوياً ، بأن هندا صاحبة الفضل فى هذا ، ومما طوع له تكريس كل وقته لعمله ، وللبلوغ من إتقانه مبلغا غبطه عليه كل زملائه .

* *

وانقضت على ترقية عباس سنوات أربع ، يئست فيها هند من أن تحمل وتلد ، فاكتفت بما بينها وبين زوجها من حب لم تكن الأيام تزيده إلا عمقا وإخلاصا ، وفى ختام السنوات الأربع رقى عباس إلى الدرجة الخامسة ، ونقل من الكادر الكتابى إلى الكادر الفنى وأصبح منظورًا إليه نظرة تقدير خاص ، فلما صدر قانون إنصاف الموظفين ، وزيدت لهم علاوة غلاء المعيشة ، قفز مرتبه قفزة واسعة ،

مكنته من الانتقال إلى بيت أحسن من البيت الذى تزوج فيه ، ومكنت هندا من تأثيث البيت الجديد أثاثا زاد الزوجين طمأنينة إلى الحياة ومتاعا بها !

وخيِّل إلى هند ، وقد أصبحت فى هذه الحال ، أن من حقها لنفسها ، ومن حق زوجها عليها ، أن تعود إلى التفكير فى أمر عقمها ، فقد عرفت من زميلاتها من بقيت مثلها سنوات عدة لم تحمل ، ثم رزقها الله قرة عين بل قرة أعين ، وفى مقدورها اليوم مالم يكن فى مقدورها بالأمس ، فى مقدورها أن تعرض نفسها على طبيب ، وأن تنفق على العلاج ، أفلا يجمل بها والحالة هذه أن تفاتح زوجها فى الأمر ، وهو لاريب سيقرها ، بل سيشجعها عليه!

وبعد تردد طال أمده ، أفضت إلى عباس بخوالج نفسها فكان جوابه :

— ربما كان العيب منى ، ولست أريد أن أعرض نفسى على طبيب لمثل هذا الأمر المخجل ، فلنترك أنفسنا فيه لمشيئة الله ، وهو جلت قدرته قد وسّع علينا فى الرزق من حيث لم نكن نحتسب ، وقد يكون فى علمه أن يرزقنا من بعد ذلك البنين ، فإن يكن ذلك فالشكر له والثناء عليه ، وإلا يكن فالشكر له مرة أخرى ، أن رفعنى فى أعين

الناس إلى ما وصلت إليه ، وأن جعلك بين النساء محمودة على ما أنت فيه من رخاء ، ونعمة !

أمسكت هند بعد هذا الجواب عن مفاتحة زوجها فى الموضوع كرة أخرى ، لكن عبارته (أن أى عيب قد يكون من جانبه) جعلت تتردد فى نفسها الحين بعد الحين ، أو لو كان هذا صحيحا ، أفلا يجب عليه — لنفسه ولها — أن يعالج نفسه ؟ . . . أم تراه عالج نفسه فى سرٍّ منها فلم ينجح معه علاج ؟ !

وهبه لم يكن قد عرض نفسه على طبيب ، أو أنه عرض نفسه على طبيب فتبين أن العيب لم يكن من جانبه ، أفلا ينبغى أن تفكر هى فى أمرها ؟ !

لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً فى سرٍّ منه ، فمالها لا تعيد الكرة عليه وقد تنتهى إلى إقناعه بما تريد ؟

وأعادت الكرة ، وألحت مستعطفة مستشفعة إياه بحبها وإخلاصها ، إلى أن قال لها : « استئذنى أباك ، فإن أذن كنت عندما تريدين ! »

وذهبت هند إلى بيت أبيها تستأذنه ، فألفت لدى بابه إخوتها الأطفال يمرحون ، هنا لك رفعت رأسها إلى السماء تشكو إليها قسوة القدر ، فلما دخلت ورأتها زوجة أبيها ، سألتها فى دهشة عما جاء بها ؟

ثم نادت أطفالها وأدارت عليهم البخور من خوف حسدها ! فلما رأت هند ما فعلت ، ترددت دون المضى فيما جاءت فيه ، وأرادت أن تعود أدراجها إلى منزلها ، لـكن أباها حضر قبل أن تنفذ عزمها ، فذكرت له أن زوجها يريد أن يحدثه فى شأن لم يفض به إليها ، ورغبت إليه أن يحضر عندها غداة ذلك اليوم !

وخيل إلى زوج أبيها أن خلافا دبّ بين هند وعباس ، فابتسمت عن رضا ، ثم أومأت إلى زوجها قائلة :

— أذهب إليها لعل الله أن يهديهما وإلا فبيتك بيتها ، ونحن جميعا فى خدمتها !

* *

وذهب الأب فى الغداة إلى بيت ابنته ، قبل حضور زوجها من عمله ، فلما رأته أفضت إليه بما دار بينها وبين زوجها فى شأن حملها ، فأجابها فى حزم :

— وما لى أنا وذاك ؟ ذلك شأنكما ، تصرفا فيه بما تشاءان .

وأدركت هند أنه لا يريد أن يصرح بالإذن لها ، مخافة أن يطالبه زوجها بالاشتراك فى نفقة علاجها ، فأخذت تداوره ، تريد أن تستدرجه

إلى إذن صريح ، وإنها لكذلك إذ أقبل زوجها ، فبادره أبوها بعد التحية بقوله :

— ما حرصك على إذنٍ منى فى أمر هو من شأنكما وحدكما ؟

قال عباس : « ذلك أننى اليوم راض بإرادة الله فينا ، سواء كان العيب منها أو منى ، وأخشى إن قرر الطب العيب منى أن تتنازعنى نفسى إلى من يخلفنى ، برغم محبتى هنداً أصدق الحب ، ووفائى لها أصدق الوفاء واعترافى الصريح بفضلها فيما بلغناه من رخاء ومكانة » .

وأسرعت هند حين سمعت هذا الكلام فقالت :

— أشكر لك ياعزيزى رقة عواطفك ، وأعدك صادقة أنه إن كان العيب منك فلن أتحول عن التفانى فى محبتك ، والعيش ما حييت سعيدة بعطفك وحمايتك ، وإن كان العيب منى فأنت وما تشاء ، ولا تثريب عليك إن هفت نفسك إلى من يخلد اسمك !

قال عباس : « أنت إذن وما تشائين ، ولن أضنّ عليك فى سبيل ماتريدين بما أطيق من نفقة ! »

وانصرف الأب مطمئنا إلى أنه لن يحمل فى هذا الأمر عبئا ماأحوج صغاره إليه !

وأثبت الطب أن عباسا لاعيب من جانبه ، وأن هندًا تحتاج إلى طويل الأمد . وأذعنت هند لهذا القضاء ، وأخذت تتردد على الطبيب فإذا انقضى شهر بعد شهر ولم تحمل ، تولاها الضيق ، وكاد يتولاها اليأس ، برغم ما كان عباس يبذله من لطف بها ، وتهوين للأمر على نفسها !

وكان عباس من جانبه يرجو أن ينجح العلاج ، وأن يرزقه الله من يرثه ، بعد أن أثبت الطب أن لاعيب من جانبه ، وانقضى عامان كان تعاقب شهورهما يزيد عباسا شعورا بعبء ماينفق فى هذا السبيل ، فكانت نفسه تهفو إلى نهاية هذه النفقة نهاية سعيدة ، يحمل يطمئنه ويطمئن هندا معه ، فلما لم يحقق الطب رجاءه ، بعد أن تولاه الحرص على عقب يخلفه ، دعا إليه حماه وقال له وهند حاضرة :

— أنت تذكر ياعماه حديثنا منذ أكثر من عامين فى أمر الخلف ، وتذكر ماقلته وماقالته هند ، ومن يومئذ نزلت على إرادتها ، وبذلت كل ما وسعته طاقتى لتحقيق رجائها ، لـكن الطب عجز ، لأن الله لم يشأ أن يـكون لى عقب منها ، ونحن الآن متزوجان من أكثر من عشر سنين ، وأنا أحس — مع تقدم السن — بشدة الحاجة إلى من يعيننى فى شيخوختى ، ومن يرثنى يوم يختارنى الله إليه . . . وأنا ماأزال أحب هندا من أعماق نفسى ، وقد صبرت هذه السنين الأخيرة ،

وأنفقت ماأنفقت ، طمعا فى أن يـكون لى منها غلام ، تقرّ به عينها ، وتقر به عينى ، أما ولم يحقق الله رجائى ، فقد رأيت أن تشير علىّ فى هذا الأمر بحضرة هند !

ولم تنتظر هند جواب أبيها ، بل قالت فى صوت تخنقه عبرة تحاول المسكينة التغلب عليها :

— ألم أقل لك منذ سنتين إنه لاتثريب عليك إن هفت نفسك إلى من يخلد به اسمك . ؟ لقد كنت أطمع أن أكون أمّا لهذا الغلام ، أما وقد أبت مشيئة الله علىّ هذه السعادة فأنت وما بدا لك ! ولن أتحول من التفانى فى محبتك ، والعيش ماحييت فى كنف عطفك وحمايتك ، والآن أدعك مع أبى ، والرأى ماتريان !

وانصرفت الشابة إلى مخدعها ، كى تترك العنان لدموعها تخفف عنها هم يأسها ، وأى يأس وأى حزن ؟ ، فهذا زوجها يريد أن يتزوج فيـكون لها ضرة مرجوة الخلف ، إذ هى عاقر عقيم ! . . هذا هو الستار الأسود الذى يحجب عن ناظرها ، وعن أملها ، كل رجاء فى النعيم !

وماذا يريد عباس أن يقول لأبيها ؟ . أبلغ من أمره أنه يريد تطليقها ؟ ! . . تلك إذن الطامة الـكبرى ، والنازلة القاضية على حياتها

قضاء مبرما ، أو ليس معنى هذا أن تعود إلى بيت أبيها أمة رق لزوجته ، تسومها الخسف ، وتذيقها الهوان ألوانا ؟

ذلك أمر لا شبهة عندها فيه ، أما إن بقيت مع زوجها على ضرة فقد تكون ضرتها عاقراً مثلها ، فيجمع الهم المشترك بينهما ، وقد لا تستطيع — وإن ولدت — أن تكسب قلب عباس كما كسبته هى ، فيظل لها من المكانة عنده ما يقيها السعير المحتوم فى بيت أبيها .

ألم تدر زوجة أبيها البخور على رأس أبنائها لتفسد حسد هند إياهم ؟ ! . . فإن يكن ذلك رأيها فيها ، ولها زوج يحميها وبيت يقيها المذلة ، أفتتحرج عن اتهامها بكل منقصة يوم لا يكون لها رجاء إلا فى عطف أبيها ، وقد أخذت هذه الزوج عليه مسالك قلبه وأمسكت بيدها خلجات فؤاده ؟ !

وإن ذلك كله ليدور بخاطرها ، إذ ناداها أبوها وقال لها :

— لقد أقررت عباساً على أن يتزوج ، وقد ترك لك الخيار ، إن شئت بقيت على ذمته ، أو شئت سرحك سراحا جميلا !

وقالت هند فى غير تردد : الأمر فى ذلك له ، فإن سرحنى بقيت على الوفاء له ماحييت ، ولن أحب رجلا غيره ، وإن أمسكنى شكرت

له نبيل عاطفته وسمو نفسه ، فهو يعلم أن الذنب ليس ذنبي ، وأن عواطفي معه من كل قلبي !

قال عباس : « وأنت يا هند على عيني ورأسي ! . وعصمتك من اليوم في يدك وليست في يدي .. ولن أنسى ما حييت أنك سبب هنائي ومفتاح فضل الله عليّ وعنايته بي ! » .

وانصرف الأب ، وتزوج عباس زوجته الثانية بعد أيام ، ولم تبطىء هذه الزوجة الجديدة أن حملت ، وفي الأشهر الأولى من حملها ، شاءت ثقة الرؤساء بعباس ندبه إلى بلد ناء ليعالج أمراً عجز غيره عن علاجه .

وخشيت الزوجة الجديدة على نفسها وعلى حملها أن تصحبه في سفره ، فاصطحب هندا وقضيا في هذا الندب عدة أشهر ، فلما عادا إلى منزلهما ، كانت الزوجة الجديدة وشيكة الوضع ، وكان أكبر ما يرجوه عباس أن تضع غلاما يعينه في شيخوخته ويرثه حين وفاته ، فلما علمت هند أن ضرتها وضعت بنتا ، رفعت كفيها إلى السماء ، شكراً لله أن لم يبلغ خذلان القدر إياها مداه فيمتع عباسا من غيرها بما يحقق له أملا أبى القدر عليها هي أن تكون مصدره .

* * *

وبعد أشهر ، حملت الزوجة الثانية مرة أخرى ! . . ثم ذكرت لعباس أن البيت أصبح لا يتسع له ولها ولأبنائها . . ولهند معهم ! .. فإما أن ينتقل بها، وإما أن ينتقل بهند، إلى بيت جديد ، ويستطيع عباس أن يعتذر عن عدم إجابة طلبها بضيق ذات اليد ، فهو اليوم فى الدرجة الرابعة ،وهو مرشح للدرجة الثالثة ، وقد استطاع أن يشترى مما اقتصده بعض أفدنة زادت إيراده !

دعا إليه هندا ، وأفضى إليها برغبة أم ولده ، وقال لها :

— الرأى الآن لك ، وأنت تقدرين أننى مطالب اليوم ، وقد أصبحت أبا ، بأن أقتصد احتياطا لمستقبل أولادى .

وبكت هند لما سمعت ، ولم تحر جوابا ، فاستطرد عباس يقول :

— أدعو أباك وأدع له الحكم بعد أن أشرح له موقفى . وسأنفذ حكمه على أية حال !

وجاء أبوها ، وشرح له عباس ما تحتمه زوجه الجديدة ، وأنه لامفر من النزول على إرادتها ، فنظر الرجل إلى ابنته مغضبا وقال لها :

— كيف ترضين هذا الحكم أيتها الحمقاء ؟ إن بيت أبيك يسك ويسع عشرات معك ، وقد ترك عباس أمرك إليك ، وهو

لا يأبى أن يسرحك إن شئت ، فما بقاؤك فى بيت لم يبق لك مكان فيه ؟ ! .

وانخرطت الشابة فى البكاء ، وقالت وكأنها لا تعى ما تقول :

— كلا يا أبى ، . فنار عباس ولا جفة زوجتك !

واستشاط الأب غضبا حين سمع عبارتها ، ورفع يده يريد أن يضربها ، فحال عباس بينه وبينها ، وخرج الأب الغاضب يلعن ابنته وقلة أدبها ، وينسب ذلك إلى ما ورثته من أمها ويقسم إنه لن يرى من بعد وجهها !

وأشفق عباس على هذه المسكينة ، التى ظلمها القدر ، وظلمها أبوها ، وأخذ يتلطف بها ، ويطيب خاطرها ، حتى هدأت ثائرتها . ثم قال لها :

— ماذا عليك أن تقيمى فى بيت بعيد عن ضرتك وأن تنسى وجودها ، إننى لن أنسى أنك كنت عتبة سعد لى ، ولن أكون معك إلا على ما يرضيك .

وانتقلت هند إلى بيت آخر متواضع ، وكان زوجها يمر بها بين الحين والحين ، وكان انتظارها إياه يطول أحيانا ، فتأخذ بخنافها الوساوس ، وكان أشد ما يفزعها إشفاقها من أن تضع ضرتها ولدا

يحقق رجاء أبيه ، فلا يبقى لها مكان من نفسه ، ولا مكان من بيته ، فينتهى إلى تطليقها ، وتضطر إلى الرجوع إلى بيت أبيها ، والخضوع لتحكم زوجته فيها ، وذلك عندها هو الجحيم والعذاب المقيم !

كانت هذه الفكرة تتحكم فى أعصابها أحياناً ، فتذرف الدمع سخيناً ، وترفع عينيها النجلاوين إلى السماء تناجيها : أى ذنب جنت ليكون ذلك جزاءها ؟ وتذكر وهى فى همها وجزعها قريبات وزميلات لسن أجمل منها .. بسم لهن الحظ بعد عبوس ، ورضى عنهن القدر بعد قسوة !

تلك ابنة خالتها ... تزوجت من كهل يكبرها ثلاثين سنة ، ومع ذلك أنجبت منه ، وهى سعيدة كل السعادة ! .. وتلك زميلتها فى المدرسة ، التى تزوجت كهلا هى الأخرى ، وبقيت معه أكثر من عشر سنوات ، توفى بعدها فورثته ، وتزوجت شاباً أنجبت منه البنات والبنين ، فهى فى رخاء وطمأنينة ورضا ، وثالثة ، ورابعة ، وخامسة ... كلهن يعشن ناعمات راضيات ، وليس فيهن من تفوقها جمالا وذكاء ، أما كفاها موت أمها وهى لا تزال فى نعومة صباها ، وزواج أبيها المرة الثانية ، وقسوة زوجة أبيها بها ؟! أما كان عدلا أن تجزى عن ذلك كله بشىء من السكينة إلى الحياة ... سكينة تعوضها عن أحزانها وآلامها ، لكل هذا الذى أصابها ؟! .. أم أن عدالة السماء لا تعبأ

بمثيلاتها ، وإن لم يجترحن ذنباً ولم تكن لهن فى الحياة جريرة ؟ !

إنها اليوم بين نارين : نار ضرتها ، ونار زوج أبيها ، وزوجها وأبوها لا يستطيعان شيئاً ، وقد استبد حب الخلف بالأول ، واستبدت كثرة الخلف بالثانى ، وبذلك تمكنت ضرتها وزوج أبيها من الرجلين تتحكمان فى تصرفاتهما بما تشاءان ، ثم يحسب كل رجل منهما أنه صاحب اليد العليا والكلمة النافذة فى بيته !

وألحّ هذا التفكير على هند ، وجعل يساورها ليلها ونهارها ، كلما أخذت الوحدة بخناقها ، فأظلمت الدنيا فى وجهها ، وفيما كانت أشهر الحمل تتقدم بضرتها ، كان هذا التفكير يحطّم صحتها ويذبل نضرتها فإذا تصوّرت أنّ ضرتها ولدت غلاماً ، ركبت القشعريرة كل جسدها واضطرب قلبها وحنانها ، وبلغت من ذلك أن ركبتها حمى ، حار الأطباء فى تشخيصها ، وحاروا لذلك فى تصوير علاجها ، وكانت هذه الحمى تزداد على الأيام شدة ، حتى لقد خشى الطبيب المعالج على حياة هند ، بعد كل الذى بذله من عناية فائقة بها !

* *

وإنها لتعانى بأساء المرض وضراءه ، إذ دخل عليها يوماً متجهماً

والدمع يكاد يطفر من عينيه ، وسألته عما به ، فلما لم يجب قالت :

— لعلّ الله رزقك بنتاً ثانية ؟!

وتنهد عباس ، وهز رأسه فى حسرة ثم قال : « نعم ! »

هنالك أشرقت أسارير هند ، وإن لم تتفوه بكلمة ، ومن يومئذ بدأ الطبيب يطمئن شيئاً فشيئاً إلى تقدمها نحو العافية !

وبرئت المسكينة ، ثم تعافت واستردت كل صحتها !

وأعجب من مرضها ، ومن إشرافها على الموت ، ومن برئها . . أن هذا المرض كان علاجاً لها فيما عجز الأطباء عن علاجه ، فقبل أن تقضى ضرتها أسابيع نفاسها ، كانت هند قد حملت ، فلما اطمأنت إلى حملها ، أشرق وجهها ، وعادت إليها نضارتها ، وفرح عباس من كل قلبه لحملها ، وأخذ يعودها كل يوم يسأل عن صحتها ، فلما تمت أشهرها وضعت غلاماً ، طار عباس فرحاً به وفاضت المسرة بهند منذ وضعته وأنستها ابتسامته كل عتابها للقدر وكل شكواها إلى السماء !

وجلس عباس يوماً إلى جانبها وهى جالسة ترضع طفلها ،

فنظرت إليه بعينين ملئتا حباً وقالت :

— ترى لو أنك لم تتزوج ضرّتى ، ولم يبلغ الحرص منى أن أوقفنى على حافة الموت ، أفكان الله يهب لى هذا الغلام الجميل ؟

وابتسم عباس لهذه العبارة ، ثم قال :

— إن لله فى خلقه شئونا ، وهو وحده الذى يعلم الغيب ، وهو أعدل العادلين وأرحم الراحمين !

وبعد هنيهة ، التقت شفاههما على يد الغلام البرىء الطفل تقبلانه، وقد أضاء قلبيهما نور البشر والسعادة !

الحُبُّ أعمَى

كان عارف مرحاً بطبعه ، لا تفارق الابتسامة ثغره ، ولا تفوته فرصة مسرة إلا ألقى بنفسه بين أحضانها . كذلك عرفه أصحابه قبل زواجه ، وكذلك عرفوه منذ تزوج . وكان جيرانه أكثر اغتباطاً بمرحه ، فقد كان إذا دخل عليهم بيتهم ملأه حبوراً وبهجة ، فكانوا يقضون الساعات معه يضحكون ملء أشداقهم ، فإذا آن له أن يتركهم تعلقوا به يستبقونه ، إبقاء على متاعهم بالمسرة التى يفيضها وجوده على كل من حوله !

وكثيراً ما كان يبقى فى مجالسه هذه إلى منتصف الليل وما بعده ، فإذا غادرها قام الحاضرون جميعاً يودعونه إلى باب المنزل ، ثم لا تغيب الابتسامة عن ثغورهم حتى يغيب هو عن أنظارهم !

لكنه انقلب منذ أسابيع شخصاً غير الذى ألفوا ، عَلَتْه سحابة من الكآبة ، فلم يعد ثغره يعرف الابتسام ، ولم تعد ضحكته تجلجل فى المجالس فتعدى سامعيها فلا يملك أحدهم أن يمسك نفسه فلا يضحك . وفى أثناء هذه الأسابيع انقطع عن زيارة جيرانه حتى حسبوه أول

الأمر مريضاً ، فلما سألوا عنه وقيل لهم إن به همًّا يشجيه ، أشفقوا لما أصابه ، وتمنوا لو استطاعوا تسلية همه !

وفيما هم جلوس يوما ، وعندهم صديقتهم « طيبة » إذ دخل عارِف عليهم ساهما ، تكاد الكآبة تقتله . فلما جلس إليهم سألوه عما به فى رفق وتلطف . وكأنما كان الشاب يريد أن ينفض مافى نفسه ، لعله يتخفف منه ، فأخذ يقص عليهم قصته ، وفيما هو يروى وقائع هذه القصة ، كانت « طيبة » تلقى إليه بكل سمعها ، بل بكل وجودها ، وكان وجهها الباش تغادره بشاشته شيئاً فشيئاً . فلما أتم عارف قصته انفجرت باكية ، وكأنما طعنها حديثه بخنجر فى قلبها !

وأشفق الحاضرون لبكائها ، وأشفق عارف معهم ، وأخذ يعتذر لطيبة أن أثارت قصته أساها إلى هذا الحد .

قالت طيبة : « لاتعجب ياسيدى ، فقصتك قصتى ، وما أشبه ما أصابك بما أصابنى . وأنا لست مرحة بطبعى كما كنت أنت مرحا ، لذلك أثارت قصتك شجونى ، وجسمت أمامى فجيعتى ، فلم أملك دموعى ، فاعذرنى ياسيدى ، وليعذرنى أصحابنا جميعاً ! »

والواقع أن قصة عارف كانت تثير العجب بقدر ماتثير الشجن . وروايته لها كانت أشد فعلا فى نفوس سامعيها ، وأعمق أثراً عندهم مما لو قصها إنسان سواه .

قال عارف :

— كان عمى يزوّج ابنته ، منذ سبعة عشر عاماً ، وقد أقام أهل العروس أكثر من شهر ، يحيون لهذه المناسبة ليالى تفريح وأنس ، لم تكن إحداها تفوتنى ، وكانت تشترك فى إحياء هذه الليالى فتاة عرفها أصدقاؤنا من بعد بأنها زوجتى . وكانت هذه الفتاة بارعة الجمال ، رشيقة القد ، حلوة النظرات ، تتقن الرقص كأحسن ماتتقنه راقصة صناع محترفة ، وقد جذبتنى نظراتها إليها ، كما جذبنى هذا الجسم اللدن ، الذى يميس حين رقصها ، فى خفة حركة ودقة نظام ، حتى يكاد يذهب باللب . وكنت إذ ذاك طالباً بالجامعة ، وكان أهلى يعلقون على نجاحى وحصولى على درجاتها أعظم الأمانى . وكنت أقدر هذا ، وأطمع فى إرضائهم ، فكنت شديد الإكباب على دراستى ، حريصاً على اتصال نجاحى ، فلما عرفت هذه الفتاة ، وكانت تحضر مع أمها ، بدأت أشعر بأن فى الحياة شيئاً غير الدراسة ، وغير الجامعة ، وغير الدرجات العلمية ، شيئاً يمس القلب ، بل يعبث به . وشجعنى ذلك على الاتصال بالفتاة ، ثم على رفع الكلفة معها ، كما شجعنى عليه ما كان أهلى يذكرونه عن أصلها وأنها من منبت وضيع . لذلك كنت ألقاها كل مساء قبيل حضورها إلى حفلة عمى ، ثم كنت أحرص على أن أصحبها وأمها إلى

منزلها المتواضع إذا انتهت الحفلة بعد منتصف الليل .

وكانت الفتاة تصبُّ فى قلبي من نظراتها ، ومن ابتساماتها ، ومن حديثها ، ما يزيدنى إعجابا بها ، وبحركات جسمها حين ترقص ، وبرشاقتها فى مشيتها ، حتى لقد كنت أتصور هذه الحركات وهذه المشية أنغاماً كأنغام الموسيقى ، أو أكثر حلاوة وحياة من أنغام الموسيقى ، لذلك وقع حبها فى قلبي ، فأنستنى كل ماسواها ، وخيل إلىَّ من نظراتها ومن حديثها يومئذ ، أن لى مكاناً فى قلبها كالمكان الذى لها فى قلبي .

وكيف أشك فى ذلك ، وهى تبدى لى من صادق الحب ما أشعر به فى أعماق وجودى ، وما يهتز له كل عصب من أعصاب فؤادى ؟ !

ولم يزعزع هذا الإيمان بحبها فى نفسى ما كنت ألاحظه عليها أحياناً من التلطف مع قريب لى ، كان حريصاً على حضور هذه الليالى فى بيت عمى ، مثل حرصى على حضورها ، بل لم أصدق ماروته لى أختى من أنها سمعتها تقول لقريبي هذا : لو كان عندك من المال ماعنده لأصفيتك ودى دونه ، فأنت أحب إلىَّ منه ، لكنك لاتستطيع الإنفاق كما ينفق ، فلا تزعجنى بإلحاحك ، ولا فائدة لى منك !

لم أصدق هذا الكلام ، وحسبت أن أختى تذكره بإيعاز من والدتها ، بعد أن لاحظت انصرافى عن دروسى ، ولاحظت تأخرى فى العودة إلى المنزل إلى مابعد منتصف الليل فى كثير من الأحيان .

واطمأنت الفتاة إلى هيامى بها ، فجعلت تسكب من عواطفها فى قلبى مابزيد حبى لها ضراما ، لكننى لاحظت بعد حين ، أنها بدأت تتحفظ معى حين انفرادنا ، فإذا حاولت أن أقبلها ، أبت وقالت :

— أنت تعلم أن أهلك لن يقبلوا أن نتزوج ، فأنتم تنظرون إلينا على أننا من طبقة دون طبقتكم ، ولاتتصورون أن الحب يزيل الفوارق بين الطبقات ، إننى أحبك ، بل أعبدك ، وأعتقد أنك تبادلنى مثل هذه العاطفة ، وأنت لاترضى لمن تحبها أن تفقد شرفها ، والقبلة مقدمة للزواج أو للضياع ، فهبنى قبلتك وقبلتنى فماذا يكون بعد ذلك ؟ . . إننى فتاة شريفة ، وأنا لا أحيى حفلات للرقص كما قد تتوهم ، ولولا مودتنا مع بيت عمك ، ولطفهم ورقتهم معنا ، ما رأيتنى قط أرقص . فلنقف بحبنا عند نهاية هذه الحفلات ، وأرجو الله لك مايرجوه لك أهلك من التوفيق والنجاح !

زادنى تحفظها هياما بها ، وألهب عواطفى نحوها ، فأخذت أسأل

نفسى : « ولِمَ لاأتزوجها ؟ » . لقد أبدع الله فى تكوينها ، فوهبها بذلك هبة لاتقل قدراً عن المال وعن الجاه ، وحباها من الرشاقة والرقة وخفة الروح مايرفعها إلى أكرم الطبقات . إنها قطعة فنية ، لاتقوّم بمال ، ولاتدانيها فى الاعتبار هبة يهبها الله الناس . إن النظرة إليها تدفع صاحب المال ليلقى بماله تحت قدميها . وصاحب الجاه ليضع جاهه تحت تصرفها . فلم لا أتزوجها وهى تحبنى وأنا أحبها ، هذا الحب الذى سما بنا كليهما فوق المال والجاه ، وفوق كل اعتبار ؟ ! .

فلما خلوت إليها الغداة ، قبيل ذهابها إلى الحفلة فى بيت عمى ، قلت لها :

— اسمعى . إننى لم يبق لى بتحفظك طاقة ، وقد فكرت فى فى كلامك معى أمس ، فصممت على أن نتزوج ، فأنت منذ الآن خطيبتى ، وإن شئت فأنت منذ الآن زوجتى . ولن أخبر أهلى بشىء من ذلك حتى يصبح أمراً واقعاً . وتحقيق هذا الأمر بيدك أنت ورهن مشيئتك . فأنا منذ الساعة ملكك ، تتصرفين بى كما تشائين . هذا كلام شرف ، أقوله لك عهداً مقطوعاً أمام الله . . . فما تقولين ؟

لم أقل هذا الكلام بلسانى وكفى ، بل كان كل وجودى يعبر عنه أدق تعبير وأعمقه . كانت عيناى تنطقان به ، وكان قلبى يخفق

لكل لفظ منه ، وكان وجهى ينم عن كل معانيه ، ولا حظت الفتاة ذلك فألقت بنفسها بين ذراعىّ ، وقالت :

— الآن . . أنا لك ، فتصرف أنت كما تشاء ، على أن يكون زواجنا ، بعد أن تتزوج ابنة عمك !

من تلك الساعة ، لم يبق للزمن وجود أمامى ، بل لم يبق فى الوجود كله إلا فتاتى البارعة المعبودة ، لم تكن عينى ترى سواها ، ولم تكن أذنى تسمع غير حديثها ، ولم يكن فى الجو المحيط بى شىء إلا هى ، كان هذا الجو معطرا بريحها وروحها وريحانها . وضممت الفتاة تلك اللحظة إلى قلبى ، وقبلت جبينها وصدغها وثغرها ، وشعرت بها أصبحت بضعة منى ، وأن وجودها غاب فى وجودى ، وأننا كما يقولون : روح فى جسدين . فلما أفقت من هذا الحلم السعيد الجميل ، نظرت فى ساعتى ، فإذا هى قد تأخرت عن الموعد الذى ألف الناس فى بيت عمى أن يروها تدخل عليهم فيه . لذا أسرعت بها إلى هناك ، ولم أدخل البيت معها اتقاء المظنة . وبعد برهة دخلت ، فألفيت القوم بدأوا ليلتهم ، وبدأو مرحهم ، وألفيتها انسحبت من بينهم تستعد للرقص وتظاهرت بالسؤال عنها ، وعن سبب تأخرها ، فقيل لى : إنها سترقص بعد هنيهة !

ورقصت ، فإذا هى شخص آخر غير الذى رأيناه فى كل ماسبق من لياليا.. لم تكن ترقص لنا، بل كانت ترقص لنفسها ، كانت كل حركة من حركات جسمها ، اللدن اللين ، الذى يطاوعها إلى كل ما تريد ، يجاوب ما تنطق به نظراتها من عواطف بالغة غاية السمو ، ولم يكن فى هذه الحركات أى معنى من معانى رغبة الحس ، بل انتقلت بصاحبتها ، وبنا الى عالم علوى ، تتناجى الأرواح فى أثيره ، وترفع الأجسام معها الى سماواته . لذلك سكن المرح الصاخب ، الذى ألفناه فى لياليا السابقة ، وبدت على وجوه الحاضرين جميعاً ، أحلام الهناء المطمئن ، التى كانت الفتاة تشعر بها فى أعماق نفسها ، وتعبر عنها فى بليغ حركاتها ، أما أنا فذهبت من سعادتى فى تيهاء مبهمة وشعرت وكأننى ما أزال ممسكا بالفتاة بين يدىّ ، أضمها الى قلبى ، وأشعر بالحب يربطنا فى وثاق متين .

وانتهت السهرة وصحبتها وأمها الى بيتهما المتواضع ! ثم عدت أدراجى أفكر فى هذا الزواج الذى سنعقده عما قريب ، والذى حسبته الكفيل بسعادة أيامى ما حييت .

لابد لى من مال أواجه به هذه الحياة الجديدة التى أنا مقبل عليها ، ولا أريد أن يعرف أبواى شيئاً من أمرها ، لذا تحايلت على

هذين الأبوين الكريمين ، وعلى الآخرين من أهلى ، فجمعت من المال كل ما استعطت جمعه ، ولم يزد مع ذلك على مائة جنيه ، تعدل قيمتها اليوم أربعمائة أو خمسمائة .

ولم ألبث حين تم زفاف ابنة عمى أن قلت لفتاتى :

— الآن حق لنا أن نصنع ما صنعوا وأن نتزوج .

ودعت الفتاة الأقربين من أهلها ودعونا المأذون وعقدنا زواجنا وأصبحت زوجاً ممتعاً سعيداً !

وبعد شهر علمت أن زوجى حامل ، وفى أثناء هذا الشهر ، لاحظ أهلى كثرة سهرى ، وتأخرى عن كل مواعيدى ، ولاحظ والدى انصرافى عن الدراسة ، وجاءت إلىّ والدتى ذات صباح ، وأخذت تحدثنى فى رفق وحنان ، وتذكر لى ما لاحظه والدى على سلوكى ، وتعيد على مسمعى أنشودتهم القديمة ، ورجاءهم فى حصولى على درجة جامعية ، أسافر بها إلى أوربا لأحصـــــل على درجة أعلى . وذكرت أن والدى مستعد للإنفاق علىّ هناك عن سعة ، إلى آخر ما هناك من أمانىّ صورتها ، وحسبت أنها تستطيع بها أن تتغلب على ما ظنته طيش شبابى . فلما أتمت حديثها ، قلت :

— ولـكننى لا أستطيع السفر إلى أوربا ، ولا أستطيع إتمام دراستى !

فوجئت الأم المسكينة بهذا الجواب ، فقـــالت فى فزع : « ولماذا ؟! » .

قلت : « لأننى تزوجت ، ولأن زوجى حامل ! »

وقصصت عليها كل قصتى ... وأيقنت والدتى من لهجة حديثى أن الأمر جد كلّ الجد ، وأنى أحب زوجتى حباً دونه العبادة، وأنى مقدر كل الاحتمالات ومنها أن يخرجنى والدى من بيته، وأننى مستعد لأن أعمل فأكسب حياتى وحياة أسرتى الصغيرة الجديدة !

وعدت الى زوجتى ، فحدثتها بما دار بينى وبين والدتى، فابتسمت وقالت :

— ما أظن الأمر يبلغ بوالدك إلى حد إخراجك من بيته ، فقد لاحظت فى أثناء حفلات ابنة عمك أنه يميل إلىّ كل الميل ، ويعطف علىّ أشد العطف ويعنى بأمرى أشدّ العناية ، فإذا صادف أن تحدث إليك فى هذا الموضوع فقل له إننى أكدت لك أنه لن يغضب من زواجنا !

ولم يخرجنى أبى من بيته ، ولم يمنع زوجتى من التردد عليه ،

ولم ينقطع عن التردد علينا ، لكنه أبى أن تقيم معه فى بيته ، ورتب لنا مبلغاً شهرياً نعيش منه عيشاً متواضعاً .

وصرفتنى عبادة زوجتى عن كل شىء سواها ، صرفتنى عن أصدقائى ، وعن أهلى ، فلم يبق أمام ناظرى غير هذه المرأة التى صورها بارئها تصويراً فنياً يرضى ذوق كل مثال ، بل يرضى خياله ، ورأيت أن المبلغ الذى فرضه والدى لا يكفل الحياة التى أطمع فيها ، فرحت أبحث عن عمل ، ووفقت فى بحثى ، وبذلت فى هذا العمل جهدى ، وانقطعت بذلك عن الجامعة غير آسف عليها .

ورزقنا ابنة ، ثم رزقنا بعد عامين ابنة أخرى . وقد ضاعف مولد الطفلتين تعلقى بأمهما ، فلم تنل عاطفة الأبوة من عبادتى إياها ، وكيف تنال منها وصاحبتها قد سكنت قلبى فلم تترك فيها مكاناً لغيرها ؟

وكم تمنيت لو أنها أنجبت أطفالا آخرين ، يزيدوننى غراماً بها وسعادة بهم . لكننى رأيتها تخالفنى عن هذا الرأى كلما حدثتها فيه ، وتذكر ما عانت فى الحمل والوضع والرضاعة ، من مشقة تريد أن تستريح منها فى إجازة طويلة . وانقضى على مولد الطفلة الثانية سنوات ثلاث بدأت زوجتى تشعر بعدها بشىء من الاستقلال ،

وبدأت تحس بالحاجة الى المتاع بالحياة ، متـاعاً ذانياً ، لا تشغله الأمومة ، وإن لم يصرفها ذلك عن العناية بالمنزل و بنفسها .

وشعرت أنا بأن ذلك من حقها ، وأن امرأة جميلة جمالها ، لا يجوز أن تحبس حياتها على أن تحمل وتلد وترضع ، لذلك لم أَر بأساً بأن تدعو بعض أَصدقائها لزيارتها بالمنزل ، ما دام حضورهم يدخل المسرة إلى نفسها ، ولم أَر بأساً بأن تخرج معى ومع واحد أو أكثر من هؤلاء الأصدقاء إلى مقهى من المقاهى فإذا أغدقت على صديق من وقتها ولطفها وعطفها ماشاءت أن تغدقه لم يثر ذلك غيرتى ، لأن عبادتى إياها كانت تجعلنى أتمنى متاعها ورضاها . ولم يزعجنى أن يكون بين هؤلاء الأصدقاء الذين يتمتعون بعطفها من ينتمون إلى الطبقة التى كانت تنتمى إليها يوم عرفتها . فقد كنت أنظر إلى كل ما تصنعه بعين الرضا ، لأنها هى التى تصنعه ، ولأنه يرضيها ، ويبعث الهناء والغبطة إلى نفسها . ولست أبالغ حين أقول : إننى كنت أرى منها مالا يطيق رجل أن يراه من زوجه ، وكنت أرى ذلك فى المنزل وخارج المنزل ، فلا يغير ذلك من حبى لها ، وعبادتى إياها ، لأنها كانت كل حياتى ، ولأننى كنت أشعر فى أعماق نفسى بأن الحياة تكون جحيما إذا لم تكن هى راضية عنى ، أما وسعادتى متعلقة برضاها فيجب أن أكون سعيدا بكل ما ترضى هى عنه .

ورأيتها يوما تطرز صديرية أعجبنى لون صوفها، فجلست إلى جانبها وقلت لها فى حنان :

— كم أنا شاكر لعنايتك ، منتظر بفارغ الصبر، أن ألبس هذه الصديرية من صنع يديك الجميلتين ...

عند ذلك تململت فى ضجر ، وقالت :

— إنما أتسلى بتطريزها ، وهى على كل حال ليست لك، وأرجو ألا تنسى أننا متزوجان الآن منذ خمس عشر سنة ، وأنت تتعبنى بمبالغتك فى إظهار محبتك لى . وقد كبرت بنتانا ، وليس من حسن التربية أن تريا منك مالا تمتنع عن إظهاره أمامهما . ولم أعد أنا أطيق هذا الحب الجارف ، الذى تحاول به أن تقنعنى بأنك ما تزال اليوم كما كنت من قبل أن نتزوج .

قالت هذا الكلام وقد تخلصت بعنف من ذراعى ، ومن قبلاتى !

لم تزعجنى هذه الحركة من زوجتى ، ولم تغير رأيى فيما كان يلمح به بعض أصحابى عن علاقتها بأصدقائها . فقد اعتقدت أنها حركة عصبية طارئة ، لا تلبث أن تزول ، وبقيت لذلك على عبادتها ، التى أملاها ما سمته هى . . الحب الجارف !

لم أر بعد هذا اليوم تلك الصديرية التى كانت تطرزها ، وخيل إلى أنها أهملتها ، وأنها تلتمس التسلية فى شىء آخر .

وبعد أسابيع عدت إلى البيت فلم أجدها ، فخرجت أضرب فى الطرقات مما حولنا ، فى انتظار عودتها . وإننى لأمر بدكان جزار قريب منا ، إذ رأيتها داخلة ، ورأيت الجزار يرتدى الصديرية التى كانت تطرزها ، فدخلت أسألها : ما الذى جاء بهـــا إلى هناك ؟ فأجابت ؟

— جئت أشترى لحماً اشتهته نفسى !

قلت : « ولـكن الخادم تشترى لنا كل صباح ما نحتاج اليه ! »

قالت مغضبة : « وهل هناك مايمنعنى إذا لم يعجبنى ما اشترته الخادم أن أخرج إلى السوق وأن أبتاع مايعجبنى ؟ »

وخرجت على أثر هذه العبارة وقد صبغ الغضب وجناتها فزادها جمالا ووقفت أنظر إلى الجزار ، وإلى الصديرية التى يلبسها ، ثم سألته :

— بكم ابتعت هذه الصديرية !

قال : « إننى لم أبتعها ، بل صنعتها لى أختى » .

كان هذا الجزار شاباً فارهاً ، جميل الصورة ، مفتول العضل ،

لاتزيد سنه على الخامسة والعشرين ، وقد خيل إلىّ حين رأيت عليه الصديرية أن زوجى هى التى أعطته إياها ، ثم راجعت نفسى ، ولمتها على شبهة لا أستطيع تصديقها . فقد يكون حقاً أن أخته هى التى صنعتها له ، فالصوف من هـذا اللون كثير فى السوق ولن تتعلق زوجى بشاب جزار ، تـكبره بعشر سنوات أو نحوها . لذلك صرفت الوهم عنى ، وعدت إلى منزلى ، فألفيت زوجى متجهمة ، فأردت ملاطفتها كشأنى معها ، فقالت فى حدة :

— اسمع . أنا لم أعد أطيق الحياة معك . لم أعد أستطيع أن أراك ، ولم تعد أعصابى تحتمل نظرتك إلىّ ، ولم يعد جسمى يحتمل مسك إياه ، وقبلاتك تثير انزعاجى . وقد يكون هذا كله طارئاً يزيله الزمن ، وعلاجه عندى أن تطلقنى فأشعر بأننى حرة فى نفسى ، وفى جسدى وفى وجودى .. ولعلى بعد زمن ، أشعر بأننا نستطيع أن نعيد سابق مودتنا ، بل سابق حبنا . فادع المأذون وطلقنى ، فلا أرى علاجاً لموقفنا غير الطلاق !

طاش صوابى حين سمعت هذه الـكلمات : أنا أطلقها ؟ ! وماذا يبقى لى فى الحياة ! بل لماذا أبقى أنا فى الحياة ؟

وعبثاً حاولت صرفها عن هذه الفـكرة فقد تشبثت بها كل التشبث ، استعطفت ، بكيت ، ألقيت بنفسى على قدميها ، جثوت

أمامها ، ونظرت إليها بعينين ملأهما الدمع ، وفيهما كل معانى العبادة ، لم يقنعها شيء من ذلك كله ، بل كان آخر ما قالته :

— خير لك ولسمعة بناتنا أن تطلقنى... وأن تطلقنى الساعة ، وإلا هجرت بيتك وخرجت هائمة على وجهى !

لم يكن لى بدّ من النزول على إرادتها ، فلم أتعودّ طيلة السنوات التى عشناها معا أن أعترض هذه الإرادة . وخرجت لساعتى ، فجئت بالمأذون ، ورجوته ونحن فى الطريق أن يحاول تسكين غضبها ، وردها عن عزمها ... وحاول الرجل ، ولكنه لم ينجح ، فطلقتها طلاقا بائنا !

وكنت أطمع فى أن نتفاهم فى أثناء عدتها ، وأن تتراجع . لكنها تركت منزلى ، وذهبت إلى أمها وحرمت علىّ أن أزورها .

وقضيت شهوراً ثلاثة فى همّ ونكد لاهمّ ولا نكد مثلهما ، كنت أبكى إذا أصبحت ، وأبكى إذا أمسيت . كنت أشعر بأننى فقدت كل مسوغ لحياتى ولولا ابتغاى لفكرت فى الانتحار !

وإننى لفى همى وفى كمدى ، إذ بلغنى أنّ مطلقتى تزوجت ذلك الجزار الذى رأيته وعليه الصديرية التى طرزتها يداها . وتتبعت أخبارها ، فعلمت أن هذا الشاب الجزار يضربها ويهينها ، فلا يزيدها ضربه ، ولاتزيدها إهانته ، إلا تعلقا به وعبادة له . ولايزيدنى ما أعلمه من ذلك إلا حسرة وندما ، وبكاء على حب وهبته كل قلبى ، فحطمته

حبيبتى تحت قدميها بغير شفقة ولا رحمة ، من أجل شاب جزار جميل ! .

أنم عارف قصته ، فبكت «طيبة» وأمعنت فى البكاء ، فلما سألها ما يبكيها ؟ قالت :

— إن قصتك مثل قصتى ياسيدى . . لقد تزوجت ، وأحببت زوجى حب العبادة . . أحببته هذا الحب الذى قصصت علينا الآن نبأه ، أحببته واحتملت فى سبيل حبى له كل شىء . . كنت أراه مع صديقاتى فلا يزعجنى ذلك ، إذ كنت موقنة بأنه عائد إلىّ لا محالة . وكان لايستحى من أن يجىء ببعض صديقاته معه إلى منزلنا ، فأدعه لهم وأخرج ، حتى لايشعر أبناؤنا الثلاثة بأننى أطيق ذلك وأسكت عليه . وكان من هاتيك المستهترات بنات بلد بارعات الجمال ، لا أدرى إن كن قد بلغن من هذه البراعة ما بلغت زوجتك أم لا . . وكنت أعاتب زوجى أحياناً ، فيهينني ويضربنى ، فأحتمل منه ذلك ، لأننى أحبه وأعبده ، ولم يكفه ضعفى أمامه ، ومحبتى له بل تزوج إحدى هاتيك النسوة من بنات البلد . عند ذلك نفد صبرى . ولقد كنت مستعدة لأن أطاوله ، لعل رشاده يعاوده . لـكن هذه المرأة اللعوب التى تزوجها خشيت هذه المطاولة ، وخشيت أن تنتهى عبادتى لزوجى بالتغلب عليها ، فالتمست عنده كل أوجه الحيلة ، ومنها المغاضبة ، ثم الاسترضاء

حتى نزل على إرادتها ، فطلقنى . ومبالغة فى النكاية بى ، أخذت وثيقة الطلاق ، وجاءت بنفسها ودفعتها إلىّ ، ثم انصرفت وعلى فمها ابتسامة الظافر . وتركتنى كما تركتك زوجتك ، وقد تقلص كل أمل لى فى الحياة ، لولا حرصى على مصير أولادى ، وخشيتى أن يحطم هذا الجاحد الخئون مستقبلهم !

كان الحاضرون عند جيران عارف يصغون إلى قصته ، وإلى قصة « طيبة » وكلهم الدهشة والعجب ، فلما فرغت طيبة من حديثها ، قالت سيدة من الحاضرات :

— أما وأنتما ضحيتان لحوادث متشابهة كل التشابه ، فلماذا لاتتزوجان ؟

وقال الحاضرون جميعاً : « نعم الاقتراح ، وكلنا نؤيده » .

أمسكت « طيبة » بطبيعة الحال فلم تقل شيئاً ، ولم تعترض ، واستمهل عارف أصحاب الاقتراح ، ليشاور فى هذا الأمر أهله .

قالت « طيبة » : « أما أنا فلست فى حاجة إلى مشاورة ، فإذا خاطبتنى فى الموضوع يوما ، فكرت فيه بنفسى » .

وإنما أراد عارف أن يشاور قلبه ، فهو لايزال مقيما على حب مطلقته رغم ماصنعت ، لكنه أشفق على طيبة إشفاقه على نفسه .

ثم إنه أفضى بالقصة كلها إلى أخته وإلى زوجها فقال له هذا الزوج :

— أنا أؤيد الذين اقترحوا أن تتزوج من هذه السيدة . وسيربط بينكما ما أصابكما ، ويكفل لكما حياة سعيدة مطمئنة !

فلما انصرف عارف ، سألت أخته زوجها عما دفعه لإبداء هذا الرأى ، فذكر له أنه يخشى أن يطلق الجزار مطلقة أخيها ، فيعود عارف إليها ، يعبدها من جديد ، بعد أن خانته ولوثت سمعته .

وبحث عارف هذه النصيحة ، وانتهى إلى قبولها ، ثم إنه خطب « طيبة » إلى نفسها فلم تتردد فى قبول خطبته ، وتزوجا .

وجمعت المأساة التى حطمت قلب كل منهما بينهما ، وأخذت تضمد جراح هذين القلبين الكسيرين ، وتأسو كلومهما ، فلما رزقهما الله أول أطفالهما مرت ابتسامة هذا الطفل وبراءته على ما بقى من هذه الكلوم ، فاندملت .

وهما الآن يعيشان متمتعين بخير ما يتمتع به الأزواج السعداء !

وفـــاء

كانت لخاله بنتان ! ربط الحب بينه وبين صغراهما بأوثق رباط ، فتعاهدا على أن يتوجا هذا الحب بالزواج ، واغتبطت « عزة » بهذا العهد ، رغم ما كانت تعلمه من رقة حال ابن عمتها ، لأنها كانت تلمح فى بريق عينيه ذكاء ، وفى نبرة صوته حزما ، وفى حلو حديثه سحراً ومنطقاً . فكانت تؤمن بأنه سيرتفع إلى مراكز سامية ، ويرفعها معه إلى هذه المراكز .

وكان « فريد » من جانبه شديد الثقة بنفسه ، وكانت نظرة عزة إليه تضاعف هذه الثقة عنده ، وتضاعف من طموحه ليكون أهلا لها ، جديراً بها . فلما بلغت الفتاة الثامنة عشرة من سنها ، خاطب زوجة خاله فى خطبة « عزة » إلى أبيها فقالت له :

— لا أحسب خالك يضنُّ عليك بابنته ، لكنه لا يرضى أن تحدثه فى هذه الخطبة ، قبل أن تخطب أختها ، فهى أكبر منها ، ولا يجوز فى عرف الناس أن تخطب الصغرى قبل أختها التى تكبرها !

وقبل فريد هذا الكلام على مضض ، وإن طمأنه أن الأم

ترحب بزواجه من ابنتها . ففى هذا الترحيب أمارة خير ، ولا ضير عليه أن يصبر ، وأن يرجو الله أن تخطب الأخت الكبيرة فى زمن وجيز !

وتعاقبت الأسابيع والشهور ، وفريد فى انتظاره على لظى . وإنه لكذلك ، إذ علم أن « أسعد بك » ذهب إلى خاله يخطب ابنتيه لولديه !

وكان أسعد بك رجلا وجيها من علية القوم ، واسع الثراء ، وكان ابناه شابين مهذبين حصلا على مؤهلات علمية أعلى من مؤهلات فريد !

واضطرب فريد إذ بلغه هذا النبأ ، وذهب لفوره إلى زوجة خاله ، يسألها عن هذه الخطبة ورأى خاله فيها ؟

قالت الزوجة :

— أنت تعلم أننا معشر الأمهات قلّ أن يكون لنا فى مثل هذا الأمر رأى ، فأما الرأى كله فللآباء ، وقد ذكرت لخالك حين أنبأنى أمس بحديث أسعد بك كلامك معى منذ أشهر فى شأن عزة . فقال : أو تريدين أن تميلى بخت ابنتك لعبارة طارئة كالتى أفضى بها إليك فريد ؟ وهل تطمعين فى أن يخطب بناتنا خير من أولاد

أسعد بك ، وهم من هم ثراء وتربية وعلما ؟ !

وماذا تريدينني أن أقول للرجل ؟ . . أأقول له : إنني أقبل خطبة كبرى البنتين ولا أقبل خطبة أختها ؛ لأن عزة تحب ابن عمتها ؟. أو تحسبينه يرضى بعد ذلك أن يصاهرنا ؟ . . أم ترينه يحسب أن تربية بناتنا سيئة لأنهما يعرفان الحب ؟ . وعند ذلك ينصرف عنا ، تاركا للناس أن يقولوا فينا ما يشاءون . كلا ! لن أقبل هـذا الوضع لنفسي ولا لبناتي . وسأزوجها من هـذين الخطيبين الـكريمين ، فأنا المسئول عنهما وعن مستقبلهما . وأرجو منك ألا تخاطبيني في هذا الأمر مرة أخرى !

وأضافت أم عزة ، في لهجة رقيقة تواسى بهـا فريدا : وأنت يابني لا ريب تفرح لما يناله أختاك من خير . وأنا أعرف لك عروسا أجمل من عزة ستحبها ساعة تراها . فلا تبتئس ، ولا يأخذ الضيق عليك مسالك نفسك !

وانصرف فريد كاسف البال آسفاً ، وخيل إليه أن باب هـذا البيت يوشك أن يوصد دونه ، فهو يعلم أن خاله رجل عنيف ، وأنه إن خاطبه في أمر عزة ، بعد أن خطبها أسعد بك لابنه ، رده أقبح

رد فأدى ذلك إلى القطيعة بينهما . وقد يؤدى إلى ألا يرى عزة بعد ذلك ماعاش !

* *

ودعا الأب ابنتيه ، وقبلهما ، وبارك لهما على خطبتهما لابنى أسعد بك!.. أما الكبرى فقبّلت أباها كما قبلها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة المسرة والرضا ، فأما عزة ، فانهملت من عينيها دمعة حارة لدى سماعها هذا النبأ . وبعد برهة انسحبت من البهو الذى يجلسون فيه إلى غرفتها وأسلمت نفسها للبكاء ، وخيل إليها أن أباها يبيعها ، كما كانت تباع الإماء فى سوق الرقيق ، وأن القدر كتب عليها أن تكون بائسة طول حياتها ، لكنها كانت موقنة أنها لن تستطيع لقرار أبيها نقضاً ، ولن تستطيع عليه ثورة . فأبوها لا يقبل أن تعارضه زوجه ، أو تعارضه إحدى ابنتيه ، بل يرى فى أية معارضة له عقوقا وخروجا على ما أدب أسرته به من أنه السيد المطاع ، وأنهن جميعاً له تبع !

ودخلت عليها أمها وهى فى بكائها وحزنها ، وحاولت أن تقنعها بأن أباها أعلى منهن رأيا ، وأبعد نظراً ، وأنه أحرص على مستقبلهن من أنفسهن فلا مفر لهن من قبول قضائه بالتسليم والرضا !

ولم تجب عزة بكلمة ، ولم تنبس ببنت شفة . فلم يكن فى

مقدورها أن تتكلم والعبرات تخنقها ، والهم قد جفف حلقها وأعجزها عن النطق !

وخرجت أمها بعد زمن حيرى ، وكل الذى دار بخاطرها أن حزن ابنتها طارىء لن يلبث عطفها أن يغرقه ، ثم تغرقه هدايا خطيبها ، ويغرقه بعد ذلك جهازها وفرح زواجها ، وانتقالها إلى حياتها الجديدة !

لكن هذا الرجاء الذى خالج نفس الأم ، وهون عليها حيرتها ، لم يتحقق . فقد تشبث الهم بنفس عزة ، وركبها حزن محا عن ثغرها ابتسامته ، ولم يخفف منه ما كان خطيبها يبعث به إليها الحين بعد الحين من نفيس الهدايا . لقد شعرت بأنها كمٌّ مهمل ، وبأن عواطفها ووجودها وحياتها لا رأى لها فيها ، ولا قيمة لها عند أبيها . ورأت إلى ذلك أنها لا تستطيع أن تعترض أو تثور ، فاحتقرت الحياة وما فيها . وانصرفت عن كل نعمائها . مكتفية بأن تلوك شجاها وهمها ليلها ونهارها ! . وأدى ذلك إلى فقد شهيتها للطعام ، وإلى ذبول نضارتها ، وإلى تسرب المرض إلى نفسها ثم إلى جسمها ، من غير أن يشعر بذلك المرض أحد !

* *

كانت الأسرة كلها فى شغل بالمصاهرة الجديدة ، وبالهدايا الثمينة المتعاقبة ، وبالحديث عن يوم الزفاف وما يكون فيه ، وبهذا الجهاز القيم الذى كان الأب ينفق فى اختياره ساعات من كل يوم ، ولا يفكر مع ذلك فى اصطحاب ابنته ليريا ه أو يريا منه شيئاً . إنه مطمئن إلى حسن ذوقه ، ودقيق اختياره ، وإلى أنه لا يجوز أن يكون وراء رأيه معقب !

وبدأت علامات المرض تظهر على عزة ، فقد بدأ ينتابها سعال خفيف ، ظنه أبوها أول الأمر من أثر البرد ، فلما طال بها ، واستدعى الطبيب لعلاجها ، ودقق فى فحصها ، أسرّ إلى أبيها أن الأمر أخطر مما يدور بخاطره ، وأن فتاته مصدورة ، وأن الخير فى نقلها إلى مصحة تعنى بها !

ووجم الأب لما سمع ، وطال تفكيره فيه فقد أوشك الجهاز أن يتم ، وأسعد بك يطلب ملحاً فى تحديد يوم الزفاف . فماذا تراه يصنع وعزة مريضة ، ولا يمكن أن تزف إلى خطيبها قبل برئها ؟

ولم يجد حلاً لهذا الموقف إلا أن يذكر لأسعد بك مرض عزة ، وإن لم يذكر له نوع المرض ، ووجم أسعد بك طويلا ثم قال : « هذا قضاء الله لا سلطان لنا عليه والرأى عندى أن نتم زفاف ابنتك

الكبرى إلى خطيبها ، فهو أكثر إلحاحاً من أخيه فى الإسراع بالزفاف . فاذا برئت عزة من بعد ، زفت هى الأخرى إلى خطيبها ! » .

واغتبط الأب بهذا الرأى ، وتم زفاف كبرى البنتين ، وَانتقلت إلى بيتها . أَما عزة فنقلت بعد أَسابيع من فرح أختها الى مصحة تعالج فيها من مرضها !

* *

وكان خطيبها ، وكان فريد ، يترددان عليها فى المصحة ، يواسيانها ، ويسألان عن حالها . وكانت عزة تشعر كلما زارها خطيبها كابوساً يجثم على صدرها يكاد يمزقه ! . . فلم يكن منها غير أنات وسعال يخالط الكلمات القليلة المتقطعة التى تشكره بها على زيارته ! فإذا جاء فريد عندها تراءى لها فيض من نور الأمل فى الحياة ، فابتسمت وتحدثت اليه مغتبطة بزيارته وسألته عن الكثير من أمره ! .

فإذا تصورت بعد ذلك مجىء خطيبها ذوى فى نفسها كل أمل، وخيل إليها أن شبحين أسودين يحيطان بها : شبح الموت عن يسارها ، وشبح هذا الخطيب عن يمينها !

وبعد أشهر ، رأى الخطيب أثناءها أنها لاتتقدم إلى الشفاء ، ذهب إلى طبيب المصحة يسأله رأيه فى حالها ، ومتى يتم فى تقديره شفاؤها ؟ وهز الطبيب كتفه وقال :

— لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال ياسيدى ! . فهـذه المريضة عصبية الطبع ، ولأعصابها تأثير بالغ فى صحتها ، فأنا أراها أحياناً تتقدم ولو فى بطء إلى ناحية الشفاء ، ثم أراها فجأة انتكست ، حتى أكاد أيأس من شفائها . وقد حاولت أن أستدرجها لأعرف شيئاً من قصة حياتها ، لعلى أستطيع إن وقفت على سرها أن أنجح فى علاجها فـكانت تأبى كل الإباء أن تفضى إلىّ بشىء . هذا على الرغم من حرصى الشديد على العناية بها ، لرقتها وحلو طبعها ودمائة خلقها وسحر حديثها فى الساعات التى يبتسم لها الأمل فيها . أما وذلك شأنها فمن العسير علىّ أن أقول لك شيئاً عن سير مرضها ، أو مبلغ تقدمها نحو الشفاء والعافية !

وعجب خطيبها لما سمع .. هى إذن تبتسم ، لـكنه لم ير قط هذه الابتسامة على ثغرها ، وهى إذن تتحدث وفى حديثها رقة وحلاوة لـكنه لم يسمع غير كلماتها المتقطعة بين تأوهاتها ونوبات السعال التى تعتريها . والطبيب لايستطيع أن يذكر شيئاً عن شفائها ، أى إنها إن عاشت ، فقد تبقى بالمصحة عاماً أو أعواماً ، أليس خيراً أن ينفصم

العقدة التى تربطه بها ، فتتاح له الفرصة فى الزواج من غيرها ؟ . وقد يتيح لها ذلك فرصة البرء والعود إلى الحياة من جديد ؟ !

وتحدث إلى أبيه وأبيها فى الأمر ، فلم يجدا مايعترضان به عليه ، وزارها أبوها يوماً ، وقال لها ـ متكلفاً اللطف والرقة :

— لقد فهمت يا ابنتى أن خطيبك يريد أن يتزوج ، ولاأحسبك ترضين أن يخطب غيرك وأنت لاتزالين خطيبته . لذا أرى ـ إن كان مصمماً على هذا الأمر ـ أن نحل خطبتك له . وقد رأيت أن أعرف رأيك قبل أن أصرح لأبيه برأيى !

قالت عزة : « الرأى لك يا أبت ، فاصنع مابدالك » . ولمح أبوها على وجهها إشراق المسرة وهى تقول هذا الكلام . فلما خرج من عندها ، أخذ يسأل نفسه : أفكان قبوله خطبتها على غير رغبتها هو الذى أدّى إلى مرضها هذا المرض العضال ! وأخذ يحاسب نفسه ويستغفر ربه ، ويرجو لها البرء بعد فصم خطبتها حتى لايعذبه ضميره بقية حياته إن أصابها مكروه !

* *

بعد أيام من هذا الحديث ، أقبل فريد إلى المصحة ، ودخل عند عزة ، وعيناه تفيضان سروراً . فلما رأته أيقنت أن خطبتها تم فصمها ،

فغلبها الفرح الذى غلب محبها ، ونطقت بذلك أساريرها . لـكنها أرادت أن تداعب فريداً ، فقالت :

— أراك اليوم مسروراً بحل خطبتى شماتة ! أو ذلك هو الحب الذى كنت تحدثنى من قبل عنه ؟ !

وأخذ فريد حين سمع هذا الـكلام ، فنظر إليها وكله الإشفاق والمحبة ، وقال :

— أو ترضى شفقتاك أن تنطقا بمثل هذا الـكلام ولو على سبيل الدعابة ؟ أنا ياعزة أشمت بك أنت ، وأنت حياتى وأعز من حياتى ؟ ! إنما سررت لحل خطبتك لأجدد لك عهداً قطعناه أن يتوج الزواج حبنا . وإننى لعلى ثقة اليوم بأن الشفاء قريب منا ، وبأن الله أراد أن يبلو حالى بما أصابنا ، ليعلم أن للحب قدسية واجبة الاحترام . وهأنذا أقطع لك العهد من جديد ، على أن نتزوج ، أفتقطعين لى أنت مثل هذا العهد صادقة ؟

وارتبكت الفتاة لما سمعت ، وتولتها الحيرة دون الجواب . أفمن حقها أن تقطع مثل هذا العهد ، والمرض العضال يعبث بصدرها ، وفريد فى صحة وفتوة شبابه ؟ وبدا عليها من الوجوم ما أدهش فريداً فقال :

— ما كنت أحسب عواطفك نحوى تغيرت بهذا القدر ، بل حسبتك اغتبطت بحل خطبتك اغتباطى أنا بذلك ، لنعود إلى عهدنا الأول .

ونظرت إليه عزة بعينين ترقرقت فيهما دمعة لم تنحدر ، وقالت :

أفمن حق مثلى أن يقطع اليوم مثل هذا العهد ؟ .. أنت لاتعلم ، وأنا لا أعلم ، كم يطول مقامى هنا . وما يكون مصيرى بعد هذا المقام . فكيف تطلب إلىّ أن أقطع عهداً قد أعجز عن الوفاء به ؟ . ولولا هذا الشعور ، لكنت أسرع منك إلى قطع هذا العهد . وكل الذى أستطيع أن أقوله » إننى أحببتك ، وإننى أحبك ، وإننى سأحبك مابقيت فى هذه الدنيا ، وستحبك روحى حتى نلتقى فى رحاب الآخرة ، وفى رحمة الغفور الرحيم !

وصاح فريد : « حسبى منك ذلك العهد . والغفور الرحيم رءوف بعباده ، وأنا موقن بأنه سيشفيك لى ، فيتوج الزواج عهدنا غداً ، كما كنا نرجو أن يتوجه بالأمس ، لقد عاهدنى قلبى يوم خطبتك لابن أسعد بك ألا يحب غيرك ، وألا تشركنى فى حياتى امرأة سواك . وقد وفى قلبى بعهده ، وفتح الله أمامنا اليوم صفحة جديدة من صحف الأمل فى دوام الوفاء ! »

وانصرف فريد من زيارته سعيداً بها كل السعادة . ولم تلبث

عزة حين خرج أن قامت إلى نضد زينتهـا ، ونظرت إلى وجهها فى المرآة ، فاطمأنت إلى أن المرض لم يعبث بملامحها وأن نظراتها أشد جاذبية مما كانت . فلما جن الليل ، استراحت إلى أحلام لم تعرف مثلها حلاوة منذ أشهر ، ودخل الطبيب حجرتها صبح الغد ، فألفاها تغنى ، وألفى خديها خالطهما تورد كأنه تورد العافية . ورأى على ثغرها ابتسامة ناضرة ، فـكأنما عاودتها صحتها كاملة . وسر بذلك وأخذ يحادثها . ولم تستطع هذه المرة أن تـكتمه سرها ، بل قالت له إن خطبتها حلت وأشارت فى خفر إلى حديث فريد معها أمس !

وخرج الطبيب من عندها يتردد بين الأمل فى شفائها واليأس منه ، فهو يعلم أن لاشىء أخطر على حياة المصدور من الانفعالات العنيفة ، سواء أكان الحزن أم كان السرور مبعثها ؟!

وكان الطبيب يرى انفعالها بالسرور يزداد عنفاً كلما جاء فريد لزيارتها ، وفـكر فى منعه اتقـاء الخطر ، ثم لم يفعل مخافة أن يؤدى انقطاعه عنها إلى نـكسة تصيبها ، تـكون أسوأ فى صحتها !

لـكن انفعال عزة بالسرور كان يزداد على الأيام عنفاً ، ذلك أنها لم تـكن تفـكر فى أمر صحتها ، بل كان ابتهاجها بالعهد الذى قطعه فريد لها أجل قدراً عندها من شفائها ، بل من حياتها ؟

وأصبحت يوماً فإذا صدرها يدفق دماً ، فيلزمها الطبيب سريرها ،

ويبالغ فى العناية بعلاجها ، لـكن الأمر كان قد خرج من يده ، فلم ينجع العلاج ، وفى الغد من ذلك اليوم أسلمت عزة روحها ، فى حضرة أبيها وأمها . وفى حضرة فريد الذى سبقهما إليها ، لأول ما بلغه نبأ ما أصابها ، وقبل أن يحم قضاء الله فيها !

وقد رأته مقبلا وهى فى نزعها ، فقالت فى صوت لا يكاد يبين :

— وداعاً يافريد ! . . أنا على عهدى ، ولـكنى أحلك من عهدك لى ، فلا عهد على الأحياء للذين يفارقون الحياة !

وبكى فريد لوفاتها أحر بكاء ، وسار فى جنازتها إلى قبرها ، فلما رأى جثمانها ينزل إلى مثواه الأخير ، قال والدموع تخنقه :

— وداعاً يا عزة ، وأنا على عهدى لك حتى ألقاك !

وأقام فريد سنين متعاقبة ، يذهب إلى قبرها صباح الجمعة من كل أسبوع ، يضع عليها الورد والريحان ، ويتلو عنده الفاتحة . ويعود بعد ذلك إلى بيته ، وقد تحطم قلبه ، وتحطمت أعصابه .

بعد سنوات ، كانت وفاء ، قريبة عزة ، قد أصابها القدر فى أمها ثم فى أبيها . وكان فريد يعرف هذه الفتاة الرقيقة ، وإن لم يكن يزورها أو يتردد على أهلها . وكان يعلم أنها ، بموت أبويها ، قد أصبحت وحيدة ليس لها من يكفلها من أخ أو قريب . لذلك واساها فى مصابها

وفاء لعزة قريبتها . وأخذ يتردد عليها ، لعله يستطيع أن يؤدى لها أية خدمة تطلبها !

وكانت وفاء محدثة بارعة . وقد أدهش فريداً ما كان من صوتها وصوت عزة من شبه عجيب ، حتى لكان يغمض عينيه أحياناً ، فيخيل إليه أنه يسمع صوت تلك التى ووريت التراب من سنين ، وكان تكوين وفاء كله الإغراء . فقوامها ، وصدرها ، وخطواتها ، وبشرتها ، وشعرها المرسل من رأسها إلى قدميها . . . كل ذلك كانت تتضوع منه أنوثة شابة تسحر العين ، وينشق ريحها الأنف ، فى إعجاب يعادل إعجاب الأذن بصوتها ، وإعجاب الروح برقتها . . . رغم عصبية لا تخلو من عنف ، كان فريد يلتمس عذرها فى تلك الوحدة التى ضربت نطاقها حول هذه الفتاة البديعة التكوين !

وتوسمت وفاء فى هذا الرجل الذى واساها فى مصابها ، ثم عكف على زيارتها وخدمتها ، طيبة قلب ، وسمو نفس ، حببه إليها ، وجعلاها تشعر بالسعادة كلما رأته مقبلا لزيارتها . وسألت نفسها يوماً : « ترى لو أنه خطبنى ليتزوجنى ، وبينى وبينه من فارق السن ما بيننا ، أترانى أسعد بخطبته ؟ »

وكان الجواب الذى سمعته أذناها رداً على سؤالها : « وهل يمنعه

فارق السن من أن يؤنس وحدتك ما عاش ؟ .. إنه يتخطى الشباب إلى الكهولة ، لكنك تعيشين الآن وكأنك فى صومعة أو فى دير . فإذا تزوجك خرجت إلى الدنيا ونعمت بالحياة » .

وتردد هذا الخاطر فى نفسها غير مرة ، فتمنت لو أنه خطبها . وهى لم تكن تستطيع مفاتحته فى الأمر وإن كانت تتمناه . وكانت تظن فريداً لا يأبى التزوج منها إذا نبه إلى خطبتها . فهو يعيش مثلها وحيداً لا مؤنس له ، ترى لو أنها ذكرت ما يدور بخاطرها لأحد معارفها ، وطلبت إليها أن تحدث فريداً فيه فما عسى أن يكون جوابه ؟

وخاطبت وفاء سيدة تعرفها وتعرف فريداً فيما دار بخاطرها ، ولقيت السيدة فريداً وقالت له :

— إنك رجل تتخطى الشباب الآن إلى الكهولة ، وأنت تتردد على وفاء تردداً أثار لغط الناس ، رغم اطمئنانهم إلى رجحان عقلك ، وحسن سيرتك . وهى شابة رقيقة مهذبة ، وأحسبها تغتبط بزيارتك إياها . أفلا ترى أن تقطع الألسن عنك وعنها ، بأن تخطبها إلى نفسها ، فلا تجد هذه الألسن ما تتقول به عليك وعليها ؟ وأكبر ظنى أنها ترحب بك زوجاً لها . فإن شئت حدثتها ونقلت إليك جوابها .

وجم فريد لما سمع ، فلم يدر بخاطره قط أن يتزوج وفاء وبينهما فارق السن ما بينهما . وهو بعد قد جاوز سن الزواج ولا يفكر فيه . وبعد برهة قال ولا تزال الحيرة تملو وجهه :

— أنا أخطب وفاء ؟ ! .. أترينني ياسيدتى كفؤاً لها ، أو قديراً وأنا فى هذه السن على إسعادها ؟ .. إن لها من الإحترام فى قلبى ، ومن المكانة فى نفسى ، ما أخشى أن تجنى عليه رابطة الزواج . هى منى بمثابة الأخت الكريمة وأنا لذلك فى خدمتها . أما أن أتزوجها فذلك مالم يرد إلى خاطرى ، وما لم أفكر فيه !

وأجابت السيدة : « ليست وفاء بالطفلة الغريرة التى لا تعرف ما تريد ، فإن هى وافقت على الزواج منك ، لم يكن لوساوسك موضع وأكبر ظنى أن يسعد الله كلا منكما بصاحبه . وفارق السن بينكما لا يحول دون سعادتكما زوجين كريمين عزيزين ، أما ولم تفكر أنت فى الأمر من قبل ، فإنى أدعك الآن لأعود إليك بعد غد فأسمع كلمتك ، وأرجو الله أن يكلل مسعاى بالنجاح !

وغادرت السيدة فريداً وتركته لنفسه . وأخذ هو يفكر فى هذا الأمر ، الذى لم يفكر فى مثله ، منذ اختارت عزة جوار ربها ، وحين عاهد جثمانها ساعة نزلت إلى قبرها أن يظل على عهده لها حتى يلقاها

ولم يمنعه هذا العهد من التفكير فيما حدثته السيدة عنه من أمر وفاء وخطبتها ، وكأنما تنسى السنون العهود ، إذا لم يذكر بها من قطعت لهم ، حتى لا يبتلعها النسيان فى لجته !

وفيما هو يفكر ، ارتسمت وفاء أمام بصره وبصيرته ، وداعب صوتها سمعه ، وبدت وكلها الإغراء الذى لا يقاوم . فلما أرخى الليل سدوله ، قضى فريد ليلة نابغية ، ساورت غفواته فى أثنائها أحلام مضطربة ، كان يبدو خلالها أحياناً قبر عزة ، ثم تبدو خلالها وفاء ، فى رقتها وإغرائها . وفى واحد من هذه الأحايين ، اختلط عليه الأمر ، فبدا لوهمه قبر عزة وقد نقشت عليه كلمة « وفاء » . فلما أصبح وكان ذلك يوم جمعة ، مر ببائع الأزهار فابتاع منه وروداً وريحاناً ، ذهب بهما إلى المقابر ، فوضعهما على قبر عزة ، وقرأ الفاتحة عنده .

وفيما هو يتأهب للخروج ، وكأنما يودع القبر الوداع الأخير ، سمع القارىء يتلو : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » . عند ذلك ارتد إلى ناحية القبر وهو يقول : « صدق الله العظيم .. لقد عاهدتك يا عزة ، ولن أنكث العهد ، ولن أخونك من أجل وفاء ! .

ومرت السيدة الغداة لتسمع جوابه عما اقترحت عليه ، فقال لها :

— إن الرجل الجدير بأن يتزوج وفاء لم يخلق بعد !

وبعد الظهر من ذلك اليوم ، ذهب فريد إلى دار وفاء ، وقال لها :

— إنى مسافر سفراً أخشى أن يطول ، وقد جئت أستودعك الله ، فوداعاً !

وودعته وانصرف عنها ، ومن يومئذ انقطع عن زيارتها !

تركت قصة فريد هذه مع وفاء أثراً أقنع الرجل بأن صحبة الناس وصحبة النساء خاصة لا تخلو من خطر ، وأن الوحدة عبادة حقاً ، فاختار سكناً على حافة الصحراء به حديقة ، واتخذ من الدواجن ، ومن الحيوانات الصغيرة الأليفة أصدقاء عمروا هذه الحديقة ، واستمتعوا بكل عواطفه ورعايته. واختار لخدمته وخدمة دواجنه وحيواناته طاهية متقدمة فى السن ، لها ابنة لم تبلغ العاشرة من سنها . وتوثقت الصلة بينه وبين هذه الدواجن والحيوانات الأليفة ، واعتبر البنت واحدة منها ، فأسبغ عليها من العطف ما كان يسبغه على زميلاتها العجماوات !

وانقضت سنوات أخرى وهو سعيد بوحدته وحيواناته ، وإنه

لفى منزله يوماً ، إذ نعى الناعى « وفاء » إليه ، وأنها ستدفن بعد ظهر ذلك اليوم عذراء بتولا . وسار فى جنازتها ، فلما بلغ المقابر ، وجد عند قبرها سيدة واحدة تودع المتوفاة الوداع الأخير ، تلك هى السيدة التى خاطبته يوماً فى التزوج من وفاء ، فلما ذهب نحوها يحمل إليها عزاءه ، نظرت إليه فى عتاب ، وقالت :

إن المرأة الجديرة بأن تتزوج فريداً تخلق بعد ! .

وأجابها فريد :

— بل خلقت واختارها الله إلى جواره من زمن طويل .

رحم الله ، عزة ويرحم الله وفاء !

شاهد الملك

كانت المحكمة العسكرية البريطانية تعقد جلساتها لمحاكمة الذين اعتدوا على القوات البريطانية المسلحة فى أثناء الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ . وكانت بعض هذه الاعتداءات شديدة إلى حد أثار نفوس البريطانيين ، وجعلهم يرون قمعها بغاية الشدة . فقد قتل من الضباط والجنود البريطانيين عدة أفراد ، ومثّل ببعضهم . وقد بلغ فى بعض الأحايين حداً لم تحتمله دولتهم ، ولم يحتمله زملاؤهم من رجال الجيش ، ولهذا اتجه التفكير إلى توقيع عقوبات صارمة ، لا تحقيقاً للعدالة وكفى ، بل ردعاً كذلك لكل من تحدثه نفسه بارتكاب مثل هذه الحوادث .

وكان نظام « شاهد الملك » متبعاً أمام المحاكم العسكرية البريطانية . وشاهد الملك هو الشريك فى الحوادث ، الذى يتبرع بالشهادة على كل من اشتركوا معه فيها ، أو يسهل للقضاء العسكرى الوقوف على الحقيقة كاملة فى أمرها .

وكان شاهد الملك يعفى من كل عقاب ، بل كان لا يقدم للمحاكمة . وذلك خلافا للمبادىء المقررة أمام القضاء المصرى ،

والقضاء الفرنسى ، من أن اعتراف متهم على متهم لا يؤخذ به إلا إذا أيدته أدلة وقرائن أخرى تقنع القاضى بصحة هذا الاعتراف.

وكان الناس يتطلعون مشفقين إلى القضية التى يجرى تحقيقها ، والتى قبض فيها على أكثر من ثلاثين بتهمة الاعتداء على القوات البريطانية ، اعتداء أدى إلى قتل بعض أفرادها ، والتمثيل ببعض من قتلوا . وكان بين المقبوض عليهم جماعة من الأعيان ، وآخرون من المثقفين الحاصلين على شهادات عليا ، من مصر ومن أوربا ، ومن انجلترا نفسها . وكان أكبر ما يرجوه المشفقون ألا يكون فى هذه القضية شاهد ملك ، وألا يعترف أحد من المقبوض عليهم فيها ، فلم يكن متوقعاً أن يتبرع أحد غير المقبوض عليهم بالشهادة ، لأن الناس كانوا إذ ذاك يؤمنون بأن هذه الحوادث لم يدفع إليها دافع إجرامى، وأنها نوع من الحرب بين دولتين ، تريد إحداهما تحقيق استقلالها وقد اعتدت عليه الأخرى . ولا عقاب على مايقع فى الحرب من مثل هذه الحوادث .

وكان بين المقبوض عليهم فى القضية ، رجل من الأثرياء ذوى الوجاهة . أتهم بالتحريض على قتل من قتلوا . فلما دخل السجن مع رفاقه ، دخله رافعاً رأسه ، فخوراً بأنه اشترك فى عمل مجيد ، لحرية وطنه

واستقلاله . ولم يدر بخاطر أحد من الذين اعتقلوا معه ، ولا من غيرهم أنه عرضة للضعف أو التخاذل ، فثروته الطائلة تسمح له بأن يوكل عنه أقدر المحامين ، وأن يوكل محامياً إنجليزيا كبيراً ، يحضر من لندن خصيصاً للدفاع عنه . فلما وضع بالسجن الانفرادى ، فى إحدى الزنازين . وقضى به أياماً ، لا يسأله أحد عن التهمة الموجهة إليه ، بدأت الحيرة تدبُّ إلى نفسه ، وبخاصة لأنه كان يرى فى بعض الأحايين جماعة من المفتشين الإنجليز ـ مفتشى الداخلية ، ومفتشى النيابات ـ يمرون بالسجن ، وينظرون إليه وإلى زملائه نظرة حقد وكراهية !

وكان يخشى فى كل ساعة أن يدخل عليه فى زنزانته من يسأله ويحرجه ، ولم يخطىء حدسه ، فقد دخل عليه يوماً مفتش إنجليزى يعرفه ، ويتكلم العربية ، وخاطبه باسمه ، وقال له :

ـ أتعلم أن بعض الشهود قرروا أنك حرضت على قتل الجنود البريطانيين ؟

وجمع الرجل كل شجاعته حين سمع هذا الكلام وقال :

ـ ما أظن أن أحداً يوجه إلىَّ مثل هذه التهمة الكاذبة ، فأنا لا أعلم عن هذه القضية شيئاً قط ، وليس لى أعداء يريدون لى السوء

فيلفقون ضدى وقائع لا أصل لهـا ، بعد أن أقسموا اليمين على أن يقولوا الحق .

وتركه المفتش الإنجليزى ، وانصرف ولم يناقشه فى شىء . فلمـا انفرد الرجل بعد ذلك فى زنزانته ، وأقفل عليه بابها ، بدأ يضطرب ، وأخذ يسائل نفسـه : من هم أولئك الشهود الذين أدلوا بشهادتهم ضدى ؟ . ثم خشى أن يكون المفتش قد أراد استدراجه لعـله يعترف بشىء ، وظل فى هذا الاضطراب طول ليله ، يذكر أحياناً ما أصدرته المحاكم العسكرية البريطانية من أحكام بالإعدام ، أو بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وكيف نفذت هذه الأحكام لفورها ؟ !

ترى : لو صح ما يقوله المفتش الإنجليزى ، وكان بعضهم قد شهد ضده ، فأى عقوبة توقع عليه : الإعدام ، أم الأشغال الشاقة ؟

واقشعر جسمه ، وجعل يتصور نفسه معلقاً فى حبل المشنقة ، أو راسفاً فى الأغلال ، يجره قيد الحديد فى رجليه ، والسجّان من ورائه يدفعه ليقطع الحجر . واستعاد أمام ذاكرته ما حـدث منه ، فتصور أن حماسته لحرية وطنه قد كانت حماسة حمقاء ، وأن ما كان يدبره مع بعضهم لارتـكاب هذه الجرائم ، التى ذهب بعض الضباط الإنجليز ضحيتها ، ليس من شأنه أن يؤدى إلى استقلال كما كانوا

يظنون ، وأنهم إنما ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة جرياً وراء خيالات لا تتحقق . . ترى : أيستطيع المحامون ببلاغتهم إنقاذه ؟ . . لو أن ذلك كان فى الإمكان ، لأنفق فيه كل ماله . فهو الذى كسب بجده معظم هذا المال ، وهو قدير على أن يكسب مثله إذا كفلت له الحياة من جديد . . وهل تراه إذا دافع عنه أكبر محام إنجليزى فى العاصمة البريطانية ، أكفل ببراءته ، أو بحكم مخفف ينجيه من الموت ، ومن عذاب الأشغال الشاقة ؟

لكن هذه أمانى قلّ أن تصدق ، فقد ترافع محام إنجليزى كبير ، جاء خصيصاً من لندن ، فلم ينج ذلك موكله من الحكم عليه بأشد العقوبة . . . أو ليس الأفضل أن يعترف بإجرامه ، وأن يطلب من المحكمة الرأفة ؟ . . فهؤلاء الضباط الإنجليز ، الذين تتألف منهم المحكمة ، يقدرون ذلك ، ويدخلونه فى حسابهم حين يحكمون . . وهب المحكمة سألته عن شركائه ، فماذا يقول ؟ . . أيعترف عليهم فيعتبره الناس نذلا خائناً حقيراً فاقد المروءة ، فيحتقرونه ولا يضع أحد منهم يده فى يده ما عاش ؟!

لكن المروءة والكرامة والشهامة ، واحترام الناس . . لها قيمتها عند الأحياء فيما بينهم ، فأما المعرض للشنق أو الأشغال الشاقة فلا ينبغى أن يكون لهذه الاعتبارات قيمة عنده . فأين مروءته ، وأين

احترام الناس إياه يوم يشنق ؟! . . وأين شهامته ، وأين كرامتـه ، حين يضربه السجان الغليظ القاسى ليقطع الحجر ، فلا يستطيـع أن ينظر إليه معاتباً ، أو لائماً ، مخافة ما هو شر من الضرب . . مخافة الإذلال والازدراء ؟!

وجعلت هـذه التصورات المتناقضة تعبث بالثرىِّ الوجيه أياما وليالى، وهو منفرد فى نزانته ، لا يستطيع أن يفضى بشىء منها لأحد . وبعـد أسبوع أو نحوه من عبثها به ، مرَّ به المفتش الإنجليزى الذى يعرفه ، فلما رآه الرجل خيل إليه أنه ملاك بعثته السماء لإنقاذه . ولم يطل بين الرجلين الحديث ، إذ قال الثرى الوجيه لزائره :

ـ وماذا فعل شاهد الملك فى القضية المنظورة الآن بالقاهرة ؟

وأجابه المفتش الإنجليزى ، وعلى شفتيه ابتسامة صفراء : « إنه يتمتع بحريته كاملة ، فقد نقل أول أمره من السجن إلى المستشفى ، ثم لم يقدم للمحاكمة ، وعين له بعد انتهاء القضية حارسان يتبعانه كأنهما ظله ، احتياطاً له من أن يعتدى عليه أحد .

وسكت الثرى الوجيه طويلا ثم قال : « هل أستطيع أنا كذلك أن أكون شاهد ملك ؟ »

وأجابه المفتش الإنجليزى : « ذلك يتعلق بقيمة المعلومات التى تدلى بهـا ، فإن كشفت للمحققين عن الحقيقة كاملة ، ودلتهم على

الذين ارتكبوا هذه الجرائم ، كنت شاهد ملك . أما إن لم تكشف شهادتك عن الحقيقة كاملة ، فقد تؤدى إلى تشديد العقوبة عليك ! »

وانصرف المفتش الإنجليزى ، مطمئنا إلى أن صاحبه هذا يوشك أن تنهار أعصابه ، فلا يخفى على المحققين ولا على المحكمة شيئاً .

وصدق ظنه ، فقد انهارت أعصاب هذا الثرى الوجيه ، ولم يبق أمامه شىء يفكر فيه إلا أن ينجو برقبته من حبل المشنقة ، أو ينجو من عذاب الأشغال الشاقة . فلما كان الغد ، توسل إلى سجانه ، ودفع إليه ورقة ، طلب إليه أن يوصلها إلى المفتش الإنجليزى الذى زاره أمس .

ولم يكن فى الورقة أكثر من أنه يريد هذا المفتش ، فلما جاء إليه ، قال له :

ـ أريد أن أكون شاهد ملك ، وأن أعترف بكل شىء !

وسرعان ما صدر الأمر بنقله من زنزانته الى مستشفى السجن . وفى اليوم نفسه ، بدأ المحققون يسألونه ، فاعترف بكل شىء على نفسه ، وعلى زملائه ، وأفضى بالتفاصيل كلها ، وكان المفتش الإنجليزى حاضراً هذا التحقيق ، وكان ثغره يفتر عن ابتسامة الرضا كلما رأى الرجل يمعن فى اعترافاته ، ويدلى من التفاصيل بما لم يذكره أحد غيره من قبل !

ولما أتم المحقق استجواب الرجل ، وآن له أن يغادر غرفة التحقيق ، هز المفتش يده وقال :

— أهنئك ، فستكون بهذه الاعترافات « شاهد ملك » .

وصدق المفتش ، فبعد أن قدمت القضية للمحكمة ، وأعلن المتهمون فيها ، ولم يكن بينهم الثرى الوجيه ، بل أعلن « شاهد ملك » ثم بقى فى مستشفى السجن حتى لا يتصل به أحد !

ونظرت القضية ، وكان الثرى الوجيه « شاهد ملك » شاهدها الأول ، وشاهدها الرئيسى . أما المتهمون جميعاً فقد أنكروا ما نسب إليهم ، وذكر غير واحد منهم أن بينه وبين شاهد الملك ضغائن قديمة ، استشهد عليها بمن أيدوها . وترافع المحامون بعد أن ناقشوا الشهود مناقشة دقيقة ، ثم حكمت المحكمة على بعض المتهمين بالإعدام ، وعلى بعضهم بالأشغال الشاقة .

وأخلى سبيل من برأتهما المحكمة ، كما أخلى سبيل شاهد الملك ، وعين له حارسان يتبعانه كظله حتى لا يعتدى عليه أحد !

وسأل بعضهم شاهد الملك يوما عما دفعه إلى ما صنع ، فكان جوابه :

— لأتخلص من الذين ينافسوننى فى الوجاهة ؟

احتفل الناس بمن برأتهما المحكمة : احتفالهم بأبطال منتصرين عائدين من ميدان الشرف . دعاهما أهلهما وأصدقاؤهما إلى ولائم أقيمت فى قريتهما ، وفى القرى المجاورة لها ، واشترك فيها من المحتفلين عدد عظيم . لقد كانا قاب قوسين أو أدنى من الموت فأنجاهما الله ، وكان كثيرون يؤمنون بأن لهما فى الحوادث التى وقعت ضلعا ، وأنهما أقدما على ما أقدما عليه ، من أجل وطنهما وحريته ، لا يبغيان جزاءاً ولا شكورا ، ولا يطمعان فى ثروة ، ولا فى جاه أو منصب ، فهما من الفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء ، وهما من الفقراء الذين يعيشون من كدحهم وعرق جبينهم !

أما الثرى الوجيه شاهد الملك ، فذهب إلى بلدته يتبعه حارساه . ذهب إليها بليل ، فى موعد لم يعرفه أحد ، فلما دخل على أهله ، تلقوه فى صمت ، وفهم منهم أن أكبر رجائهم أن يسدل النسيان ستاراً كثيفاً على ما فعل ، فالناس كلهم له منكرون ، وكلهم يعتبرونه القاتل لمن حكم عليهم بالإعدام ، والآثم فى حق من حكم عليهم بأحكام أخرى !

وعرف الناس بعد ثلاثة أيام من صدور الأحكام ، أن المحكوم

عليهم بالأشغال الشاقة رحلوا إلى الليمان ، وأن المحكوم عليهم بالإعدام شنقوا . ولم يرتفع فى القري ، ولا فى المدن التى منها هؤلاء المحكوم عليهم ، صوت بالبكاء على من شنق ، أو بالحسرة على من أرسل إلى الليمان . بل خيمت على البلاد كلها سحابة داكنة من الكآبة ، ثم أمسك الناس عن الكلام فى هذه القضية وما صدر من الأحكام فيها .

وأيقن الثرى الوجيه أن أرواح المشنوقين لم تذهب هدراً . وأن حارسيه لن يغنيا عنه شيئاً ، إذا لم يتخذ لنفسه من الحيطة ما يحفظ حياته ، فقد رأى الناس لا يمد إليه أحد منهم يده ، ولا يحييه أحد منهم بأحسن من تحيته ، ولا بمثلها . ورأى كثيرين من العمال الذين كانوا يعملون فى مزارعه قد انتقلوا إلى مزارع غيره ، ورأي فى عيون الناس إذ ينظرون إليه حقداً وبغضاء ، إن يكونا صامتين ، فهما لذلك أشد تفكيرا فى الثأر والانتقام . والثأر فى هذه البلاد التى يعيش الرجل فيها عقيدة مقدسة ، لا يفهم أهلها عدالة القضاء : ولا تطمئن نفوسهم إلا إذا أخذوا بثأرهم ، ممن اعتدى عليهم !

والثرى الوجيه أحد هؤلاء الناس ، ومن أعرفهم بدخيلة نفوسهم ، فلا بد أن يكون منهم على حذر ، ولا بد أن يحتاط لنفسه أشد

الاحتياط ، فلن يكون عجبا أن يكون فى غرفة نومه فيترصده من بعيد من يطلق عليه الأعيرة النارية فيرديه قتيلا ، ويومئذ لا ينفعه المال الذى كنزه من الربا وغير الربا ، ولو أن ذلك حدث لكان شراً من حكم المحكمة العسكرية عليه بالإعدام ، لأنه يكون ثأراً لما اعتبره الناس خيانة منه ونذالة !

لهذا ، أقام حول بيته ، من جهاته الأربع ، سوراً رفيعاً منيعاً ، ليس فيه نافذة واحدة.. وبذلك اطمأن إلى حياته ليله ، واطمأن بحارسيه إلى حياته نهاره ، فهما مسلحان ، والناس يعرفون ذلك عنهما ، فلن يجرؤ أحد على الاعتداء وهما من حوله . ومن يوم طمأنينته إلى سور داره ، جعل يدخل بيته قبل مغيب الشمس من كل يوم ، ولا يبرحه إلا بعد مطلعها ، مقتنعا بأن الزمن سينسى الكثيرين ما فعل ، وأن الذين هجروا مزارعه من العمال والمستأجرين سيعودون إليها ، فلا يبقى له خصم إلا أهل من حكمت المحكمة العسكرية البريطانية عليهم بالعقوبة !

وكان الحارسان يبيتان فى البيت معه ، فقد أعد لهما حجرة بالطابق الأول ، وإلى جوار مدخل البيت ، مطمئنا إلى أن باب السور المنيع حصين لا يستطيع أحد فتحه إذا أقفل ، وإلى أن وجود الحارسين

داخل البيت أدعى إلى طمأنينة أهله جميعاً . وقد أثث حجرة الحارسين أثاثاً حسناً ، وعنى بهما أكبر العناية ، أوصى خادمه الخاص بهما خيراً ، يريد بذلك كله أن يحتاط حتى لا يصرفهما أهل القرية عن شدة العناية بحراسته ! .

وتعاقبت الشهور ، ثم أقبل شهر رمضان ، ومن عادة الناس فى هذه القرى ، أن يمدوا أمام دورهم موائد ، كل على حسب قدرته ، حتى إذا مرّ بهم صائم ساعة المغيب ، مال إليهم وتناول إفطاره معهم ، سواء أكانوا يعرفونه أم لا يعرفونه ! .

ورأى الرجل بعد أن أقام السور حول بيته أن تكون مائدته داخل السور ، وإن أيقن أن أحداً من الناس لن يجلس إلى مائدته أو يتناول طعامه ، سواء فى ذلك أبناء قريته وأبناء غيرها من القرى المجاورة ، وقد كان يجلس بعد العصر خارج السور على « مصطبة » بناها لهذا الغرض . فإذا جاءه موعد الإفطار ، دخل داره ليتناول الطعام مع حارسيه المسلّحين .

وإنه لجالس يوماً قبيل الغروب على « مصطبته » إذ مرّ به رجل من معارفه ، وجلس إلى جانبه يحدثه . فلما دنت ساعة الغروب ، دخل الحارسان إلى الدار ، يستعدان لتناول طعامهما ، وينتظران الثرىّ

الوجيه ليتناول الطعام معهما . ودعا الثرى « شاهد الملك » محدثه ليتناول الطعام معه ، فاعتذر بأن قوماً ينتظرونه فى بيته ، وأنه حريص مع ذلك على أن يتم الحديث الذى بدأه ، وكل الذى يطلبه أن يأمر الثرى خادمه ليجىء بالماء وببعض بلحات « يفك بها صيامه » .

ولم يجد الثرى بدًّا من أن يفعل ، فدعا خادمه فجاء بالماء والبلح ، ودخل ينتظر أذان المغرب ليفطر هو الآخر . وفى هذه الساعة التى تسبق المغيب من رمضان ، كان فلاحو القرية يعودون زرافات من الحقول ومعهم ماشيتهم ، وهم فى هرج ومرج ، وكل يريد أن يبلغ داره قبل الأذان . وإنهم لكذلك إذ اندفع من بينهم أربعة ملثمون إلى ناحية الثرى الوجيه شاهد الملك ، وهو جالس إلى جانب صاحبه يحدثه : فأفرغوا فيه أعيرتهم النارية ، فأردوه قتيلا ! .

وخشى حارساه إن هما خرجا أن يصيبهما ما أصابه على غير جدوي، فبقيا حول المائدة ، وكأنهما لم يسمعا شيئاً ، ولم يريا أحداً ! .

وفى ساعة الأذان ، انتشر النبأ فى القرية ، فإذا الزغاريد تنطلق من كل جوانبها ، ثم إذا بامرأة تهجم على جثة القتيل تعضها بأسنانها ولا يمنعها أحد . تلك زوج أحد الذين حكم عليهم بالإعدام وشنقوا . وشفت المرأة غليلها ، ورجعت إلى دارها ، وكأن لم يرها أحد ،

وكأنما احتفظت بتقاليد أسرتها وتقاليد القرية ، فلم تخرج من دارها وكأن حادثاً لم يقع ، وكأن قتيلا لم ترو دماؤه الأرض ! .

وفى منتصف ، الليل ، وبعد الحادث بساعات معدودة ، تولت النيابة تحقيقه .

وفى البكرة من صبح الغد ، جاء المفتش الإنجليزى ، الذى زار الثرى الوجيه فى السجن ، فأدت زيارته بالرجل إلى أن يكون شاهد ملك ، جاء يحضر التحقيق ، ويبدي من العناية بوصوله إلى نتيجة ما يدل على أن البريطانيين لا ينسون من يخدمونهم . لكن أهل القرية كلهم ، كانوا ـ على لسان رجل واحد ـ يقررون أنهم لا يعرفون عن هذا الحادث شيئاً ، ولا يعرفون كيف وقع ! .

وسئل الحارسان ، فقررا أنهما كانا فى حجرتهما داخل الدار ، اقتناعا منهما بأن الثرى الوجيه لا يبقى خارجها فى مثل هذه الساعة ، وأنهما خرجا حين سمعا إطلاق الأعيرة النارية ، فلم يريا غير الماشية ، ومن ورائها أصحابها فى عودتهم إلى مساكنهم ، وأنهما سألا الفلاحين العائدين من عملهم ، فذكروا أنهم لا يعرفون الفاعلين ، لأنهم كانوا ملثمين ، ولأنهم فروا وأسلحتهم فى أيديهم ، فلم يكن فى مقدور أحد أن يتعقبهم فيفقد حياته ! .

واستمر التحقيق أسابيع ، وأوقف عمدة البلدة ، لاقتناع المحقق بأنه يعرف الفاعلين ، لـكن المحقق كان يعلم كذلك أن هذا الإيقاف لن يؤدى إلى نتيجة . فلو أن العمدة أرشد إلى أحد ، لتعرض لما تعرض له الثرى الوجيه شاهد الملك ، ولـكان مصيره المحتوم أن يلحق به ، وكذلك انتهى التحقيق إلى غير نتيجة ! .

وشعر أبناء شاهد الملك وأهله بأن الناس ينظرون إليهم شذرا ، ويصمونهم بما كانوا يصمون به أباهم . . بأنهم خانوا وطنهم ، وخانوا أبناء بلدتهم ، ومديريتهم ، وشعروا لذلك بأنهم سيجدون غاية المشقة فى أن يتعاملوا مع هؤلاء الناس ، فرأوا الانتقال من المديرية كلها إلى مديرية غيرها ، مطمئنين إلى أن ما ورثوه يكفل لهم العيش الحر ، فى بيئة لاتنظر إليهم بعين العداوة التى ينظر بها إليهم أهل القرية التى ولدوا ، وولد آباؤهم بها ، وعاشوا وعاش آباؤهم فيها ! .

وأشار عليهم أحد معارفهم بأن الخير فى أن يتركوا المديريات كلها إلى العاصمة ، فالمدن الـكبيرة كالبحر الزاخر لايعرف بعض أهلها بعضا ، إلا أن تـكون بينهم معاملة ، ولايعرف بعضهم بعضا إلا فى حدود هذه المعاملة ! .

واطمأن أهل شاهد الملك إلى هذه المشورة ، وانتقلوا إلى العاصمة . فلما استقر مقامهم ، فكروا فى أن يبيعوا أملاكهم بالقرية التى نزحوا منها ، وأن يقطعوا كل صلتهم بها . ولم يكن بيع هذه الأملاك يسيراً ، فقد تظاهر أهل القرية بمقاطعة هؤلاء الذين ورثوا شاهد الملك ، حتى اضطروهم إلى التسامح فى البيع ، والنزول عما يكاد يعدل ربع الثمن . هنالك ابتاعوا الأرض وما عليها ، واتجه المهاجرون من أصحابها ، بعد أن قبضوا ثمنها ، إلى ناحية أخرى من نواحى الكسب فى العاصمة !

والآن وقد انقضى على هذه القضية مايزيد على خمس وثلاثين سنة ، فقد تناسى أهل القرية حديث شاهد الملك ، لأنهم اعتبروا هذا الحديث وصمة عار لقريتهم ، فلم يعد أحد يذكره !

وابتلعت العاصمة العظيمة هذه الأسرة فى لجتها ، وأبدل أفرادها أسماءهم حتى لايعيرهم أحد بأن أباهم كان شاهد ملك أمام محكمة أجنبية ، وفى قضية كان الجناة مدفوعين فيها بعاطفة سامية وطنية !

قصّ علىّ هذا القصص صديق كريم ، كان حاضراً لتلك المحاكمة ، وهو لايزال يذكرها ، وفى نبرات صوته أسى على الذين أعدموا بشهادة الثرى الوجيه شاهد الملك ، وإن كان يرى أن ما أصابه ، وأصاب أبناءه ، كان من عدل الله !

لله فى خلقه شئون

كان الدكتور مرزوق جراحا ماهراً ، ولم يكن ذلك عجبا . وقد كان واسع الاطلاع على كل ما يظهر فى فنه ، حريصاً حين اصطيافه فى أوربا على أن يحضر « عمليات » كبار الجراحين فيها ، برغم أنه قضى فى مهنته أكثر من عشر سنوات ، بعد أن حصل على درجة الزمالة من كلية الجراحين الملكية بانجلترا .

وبلغ من نجاحه أن استأجر مستشفى خاصا ، جهزه بأحدث المعدات ، وهيأ فيه لمرضاه أدق العناية ، وجعل منه مستشفى نموذجيا ، وإن لم يكن مستشفى كبيراً .

وكان ارتياد الحفلات الخيرية بعض هوايته فى أوقات فراغه ، فإذا ذهب إلى حفلة منها أنفق فى ابتياع الأزهار التى تقدمها بعض الفتيات ، والمعروضات التى تقف عندها بعض الشابات ، قدراً غير قليل من ماله . واستبدت به هذه الهواية حين بدأ يفكر فى الزواج ، فهو يعلم أن كثيرا من بنات البيوتات الكريمة ، يتبرعن ببيع الأزهار

أو المعروضات ، وأن اختيار إحداهن يجعل الزواج منها عن بينة ، إذ يتيح له فرصة محادثتها ، والتعرف إليها ، ومعرفة ذوقها ومزاجها . وهو مع ذلك لم يكن متعجلا ، لأنه كان حريصا على أن تطمئن له الفتاة التى يختارها ، حرصه على اطمئنانه إليها .

وفى حفلة من هذه الحفلات ، وقف عند شابة تعرض أعمال الجمعية التى أقامت الحفل ، وأخذ يقلب ماتعرض ، ويتحدث إليها . وقد علم أنها ابنة طبيب للأمراض الباطنية ، توفى منذ سنين ، وأنها تعيش مع أمها وأخيها الذى يكبرها سنوات قليلة .

وقد أعجبه حديثها ، وأعجبته رزانتها ، وثقافتها ، وإتقانها اللغتين الفرنسية والانجليزية . كما أعجبه منها أنها فارعة القوام ، يبدو فى نظراتها الحزم ، وصلابة الرأى ، مع حلاوة فى الابتسام ، تخفف من شدة هذه الصلابة وهذا الحزم .

وعاد الدكتور مرزوق فى الغداة إلى هذه الحفلة ، ووقف يحادث الشابة يريد أن يقف على اتجاه تفكيرها وميولها ، حتى يحكم فيما بينه وبين نفسه : أتصلح له ويصلح هو زوجا لها ؟ ولم تفطن الفتاة بطبيعة الحال إلى شىء من هذا ، ولذلك كانت تحدثه على سجيتها فى غير احتياط ولا حذر . وكان هو يسترسل فى الحديث معها ، ثم يقلب

بين حين وحين ما تعرضه ، حتى لا يلحظ أحد طول حديثه معها .

وكانت « سوسن » فى الثامنة عشرة من سنها ، وإن بدا عليها — لوفاء جسمها — أنها تخطت العشرين . وكانت لذلك تخاطب الدكتور مرزوق وكأنها تخاطب أباها ، فلا يدور قط بخاطرها أنه يفكر فى خطبتها أو التزوج منها . أليس يذكر أن أباها كان صديقه ، ويبدو على ملامحه أنه فى سن كسن أبيها يوم توفى من سنين وهو فى عنفوان فتوته ؟ . لذلك كانت تطيل الحديث ، وتبتسم فى براءة كأنها براءة الطفولة . وكانت تغتبط حين يبتاع محدثها شيئاً من المعروضات التى عهد إليها فى تصريفها ، اقتناعاً منها بأن ذلك يزيدها قدرا فى نظر رئيسة الجمعية ، صاحبة الحفلة .

واغتبط الدكتور مرزوق بما بدا من عدم تحفظ محدثته ، كما اغتبط بتربيتها وثقافتها ، وخيل إليه أنها توافق مطلبه ، وتكون خير زوج له . وكذلك فكر فى خطبتها إلى أهلها ، مؤمنا بأنهم لن يترددوا فى قبوله . وهل يتردد أحد فى قبول جراح ناجح خطيباً لابنته ؟

وخاطب الدكتور مرزوق أخا الفتاة بالتليفون ، ثم التقى به وحدثه فى خطبة أخته لنفسه ، فأجابه الفتى بأن الأمر فى ذلك لأمه ، وأنه سيفضى إليها بما ذكره الدكتور له .

وكانت « جنان » — أم سوسن — سيدة حصيفة عاقلة ، لاتزيد سنها على الأربعين إلا قليلا . وكانت تفوق ابنتها جمالا ورقة ، وإن لم تخف ملامحها سنها ، رغم رشاقة جسمها ، واعتدال قوامها .

فلما سمعت حديث ابنها عن خطبة أخته ، افتر ثغرها عن ابتسامة الرضا . وقد كان زواج سوسن أهم مايشغلها ، وكانت تدعو لها دائما بالخير والتوفيق ، ثم كانت تعلم أن الدكتور مرزوق من الأطباء اللامعين فى مصر ، وأن الله أراد بخطبته ابنتها لنفسه أن يعوض الأسرة كلها خير عوض عن فقد زوجها فى عز فتوته .

وتحدثت « جنان » إلى ابنتها فى هذا الأمر فيما بينهما ، وتذكرت سوسن هذا الطبيب الذى كان يقف عندها ، ويتحدث إليها ، ويبتاع معروضاتها . فقالت لأمها :

— لكنه يا أماه من زملاء أبى ، ومن أصدقائه . وأنا أريد إذا غادرتك وتركت هذا البيت أن أتركه إلى بيت زوجى ، لا إلى بيت عمى !

وقالت أمها : « لقد كان زميلا لأبيك حقا ، لأنهما من مهنة الطب معاً ، لكنه يصغر أباك فى سنه . وفارق السن يا ابنتى تعوضه

أمور كثيرة: يعوضه المركز الاجتماعى ، والمكانة فى المهنة ، وتعوضه الثروة . وأنا لا أعرف الدكتور مرزوق شخصيا ، ولكنى أسمع عنه كل ثناء . ولا أحسبك ترفضين خطيباً كهذا ، لأنك رأيته فى حفلة خيرية ، فلم يترك فى نفسك من الأثر ما يحببه إليك . فكثيرون نراهم فلا يعجبوننا لأول نظرة . فإذا عرفناهم على حقيقتهم ، تغير رأينا فيهم . وأنا سأطلب إلى أخيك أن يدعو الدكتور ليحضر إلينا، فإذا لقيته وتحدثت معه على أنه خاطبك ، نظرت إليه بعين غير العين التى نظرت بها إليه حين كنت تريدين أن تبيعيه معروضات الجمعية . ولا بأس بعد ذلك بأن يكون لك رأى ، فأنا لا أكرهك ، ولن أكرهك على غير ماتحبين .

وجاء الدكتور مرزوق للموعد الذى ضربته « جنان » فألفاها وابنها فى انتظاره . فلما تناول القهوة ، قال إنه جاء خاطباً . وكانت جنان منذ حضر تنظر إليه من رأسه إلى قدمه بعين فاحصة مدققة ، وتستمع إلى كلماته، وتزنها كلمة كلمة . والحق أنه أعجبها قواما وهندما وكلاما . فلما خطب إليها ابنتها ، قالت له :

— مرحباً بك يا دكتور . أنا أعلم أنك كنت من أصفياء المرحوم زوجى ، ولن أعز عليك ابنته، على أنك تعلم أن للفتيات اليوم رأيهن،

وستحضر سوسن عما قليل وتتحدثان ، وقد ذكرت لى أنك رأيتها فى حفلة خيرية ، وأنكما تحدثتما ، لكنها قالت إنك لست الوحيد الذى حدثها ، وإنها لم تفطن قط إلى أن حديثك يمكن أن ينتهى بخطبتها . فإذا جاءت أتحت لكما فرصة الحديث فيما بينكما . والله يهديكما ويوفقكما . فكل ما أرجوه لك ولها الخير والسعادة .

* *

لم يكن مرزوق يحسب « جنانا » لها من الثقافة مثل حظ ابنتها ، فلما تحدثت إليه ، وأخذت وأعطت معه ، شعر بأن البنت سرُّ أمها ، وأن ما أعجبه من سوسن إنما ورثته من هذه الأم ، التى لاتزال تتمتع بحظ من الشباب غير قليل .

وجاءت سوسن بعد برهة ، فانسحب أخوها من المجلس ، ثم انسحبت أمها ، بعد أن تبادلت وإياها بعض الحديث ، على أن تعود إليهما بعدٍ قليل . فلما عادت ، استأذن مرزرق وانصرف . وسألت الأم ابنتها رأيها فيه ، فقالت :

— لاأستطيع أن أبدى رأياً بعد . فلقد كنت أشعر طول الوقت بأنى أحدث رجلا فى مقام أبى ، هو ولا ريب عاقل رزين ، لكن فارق السن بينى وبينه يجعلنى أتردد أشد التردد . فإذا لم يكن بد من

أن أبدى رأيا الآن ، فالرأى أن تعتذرى إليه بأن فارق السن يحول دون امتزاجنا ، وأن تقفلى هذا الباب .

قالت أمها : « أتحسبين يا صغيرتى أن أمراً خطيراً كالزواج يبتُّ فيه الإنسان بمثل هذه الخفة . إن هـذا الدكتور هو أول بختك ، ومن رفضت أول بختها فقلما يكون مَن بعده خيراً منه . فأنصح لك يا حبيبتى ألا تقضى فى الأمر بهـذه السرعة ، وسأدعو الدكتور لزيارتنا مرة أخرى . فهو فى نظرى خاطب لا يرفض. والخاطبون من طرازه قليل ».

والحق أن حنان أعجبت بالدكتور مرزوق غاية الإعجاب ، وكانت تتمنى أن تقبله سوسن زوجا لها . ولهذا كانت تنتهز كل فرصة لتقنع ابنتها بقبوله ، وكانت تلتمس كل وسيلة لهـذا الإقناع . فسيارته « البويك » البديعة ، ومستشفاه الذى يتحدث الجميع عنه ، وسفره كل صيف إلى أوربا ، وسيجاره الضخم الفخم الذى لا يكاد يفارق يده ، وسمعته الطنانة الرنانة ، وثورته التى يتحدث الناس عنها ، حتى ليقولون إنه يريد أن يبنى لنفسه مستشفى خاصاً ، ورزانته ورقته وظرفه ... ألا يعدل ذلك كله فارق السن الذى تتحدث عنه سوسن ؟ وهل الأعمار بالسنين ؟ . ألا يموت الشبان ويبقى غيرهم أطول العمر؟. ألم يمت أبوها وهو فى عز فتوته . وفى قمة مجده ؟ !

ذلك كله كانت جنان تـكرره لابنتها ، تحاول أن تحملها على تغيير رأيها . كما كانت تنصح لها أن تـكون الظرف والرقة فى حديثها مع مرزوق ، أيا كانت النتيجة التى ينتهيان إليها .

وجاء الدكتور مرزوق لموعد آخر ضربته جنان ، فألفاها وحدها ، وسأل عن سوسن فقالت أمها إنها ستكون معها عما قليل . وأخـذ الخاطب والأم يتحدثان فى أمور شتى ، أشار الدكتور فى أثنائها إلى عمله ونجاحه فيه . وذكرت جنان إعجابها بمقدرته ، وعظيم أملها فى أن يوفق الله ابنتها الى الرأى الذى تريده ، حتى تفرح بهما عروسين يشرحان قلبها .

وطالت غيبة سوسن ، فبعثت أمها فى طلبها . وجاءت الخادم تذكر أن سيدتها الصغيرة شعرت فى اللحظة الأخيرة بمغص فهى تعتذر من عدم النزول !

قالت جنان : « اسمح لى يا دكتور أن أراها هنيهة ثم أعود إليك » .

وصعدت تسأل ابنتها مالها . قال سوسن :

— لا طاقة لى بالنزول ، فتصرفى بما تشائين :

وعادت جنان ، فاعتذرت إلى مرزوق وقالت :

— لعلك تستطيع أن تراها من بعد ، وسأدعوك إلى الموعد الذى تلقاها فيه عما قريب !

وانصرف مرزوق وهو يسائل نفسه ، ماهذا المغص المفاجىء الذى ألم بالفتاة ؟ .

ويذكر أن ما جرى بينه وبينها من حديث ، حين تركتهما أمها المرة الأولى ، لم يكن يدل على اغتباطها بخطبته إياها . ثم يذكر ما فى نظراتها من دلالة على الحزم وصلابة الرأى . وقال فيما بينه وبين نفسه : « لو أن هذه الفتاة ورثت من أمها ظرفها ورقتها ، كما ورثت منها ذكاءها وثقافتها ، لكمل لها كل ما أطمع أن يكون فى الزوجة التى أبحث عنها ، ولما أبدت هذا الجفاء من جانبها نحوى ، على أية حال يجب أن أحسم الأمر ، إذا دعتنى أمها إلى مقابلة أخرى ، فلست أريد أن يطول أكثر مما طال ! » .

وتحدثت جنان إلى ابنتها بعد انصراف الدكتور ، تعاتبها على عدم النزول إليهما . قالت الفتاة :

— لقد انتهى رأيى أن لا أقبل الزواج منه ، فما فائدة مقابلتى إياه ؟! لقد قلت لك منذ حدثتنى فى الموضوع لأول مرة إننى أشعر حين يخاطبنى بأنه أبى أو عمى ، فلا بأس عليك أن تذكرى له أن فارق السن بيننا لا يسمح بزواجنا !

وتولت الأم الحيرة كيف تتصرف ؟ لقد كان جل مناها أن تقبل ابنتها هذا الخاطب لتطمئن على مستقبل حياتها . ولأنه رجل اجتمعت فيه كل معانى الرجولة ، وكل صفاتها ، فرفضه يمكن أن يساء بين الناس تأويله . لكنها لا تملك إكراه ابنتها على أمر لا تريده ، مخافة أن يؤنبها ضميرها بقية حياتها ، إذا لم تكن هذه الزوجية موفقة !

* *

انتهى التفكير بجنان إلى أن ضربت للدكتور مرزوق موعداً ، لقيته فيه وحدها ، وقالت له :

ـــ أنت يا دكتور رجل كامل الصفات ، ولولا ما بينك وبين سوسن من فارق السن ، لما ترددت فى قبول خطبتك . لكنها تشعر وأنت تحادثها بأنك أبوها ، فلا يشجعها ذلك على أن تكون زوجا لك . وقد حاولت أن أقنعها بأن هذا الشعور طارىء يزول بالعشرة ، فأصرت على رأيها . . . وإننى لآسفة أشد الأسف أن أبلغك ذلك . فقد كنت شديدة الرغبة فى مصاهرتك ، لنسعد بأن تكون من أسرتنا .

أطرق الدكتور مرزوق طويلا حين سمع هذا الكلام ، ثم رفع رفع رأسه وحدق بجنان ، وفى عينيه بريق ، لم تلحظه من قبل . وقال :

وأنا حريص على أن أكون من أسرتكم ، وأن أكون من سوسن مكان أبيها . فهل تقبلين أنت أن تكونى زوجتى ؟ . هذه يدى أمدها إليك ؟ فهل تقبلينها ؟

لم تكن جنان تتوقع هذه المفاجأة ، ولكنها سرّت بها ، وألقت ببصرها إلى الأرض طويلا ، ثم قالت :

— وماذا يقول الناس عند ذلك عنى ؟ ... إننى غصبت خطيب ابنتى ، لأنه أعجبنى ، أولأننى أحببته ؟ . لا أستطيع أن أجيبك الآن ، فاترك لى على الأقل فرصة تفكير .

قال مرزوق : « أنت وماتشائين . فكرى فى الأمر ، وأنا فى انتظار كلمة منك ألبيها لساعتى » .

والواقع أن جنانا كانت تتمنى أن يخطبها الدكتور مرزوق ، منذ رفضته ابنتها ، هذا الرفض الأحمق . أفكان ذلك لأنها أحبته ، أم كان رد فعل من جانبها لتصرف ابنتها تصرفا لم يعجبها ؟

وهل خطبها مرزرق إلى نفسه ، لأنه أحبها بعد الأحاديث التى دارت بينهما ، أم لأنه رأى فى الزواج منها رداً لاعتباره إزاء رفض سوسن خطبته ؟

أيا كان الأمر ، لقد عرضت جنان خطبة الدكتور إياها على ابنها ، بمحضر من ابنتها ، وقالت :

— لايزال فى الوقت متسع ، فإن أصرت أختك على رفض هذا الخاطب الذى لايرفض ، فسأقبل أنا خطبته .

وأصرت الفتاة فى عنادها على موقفها ، وانقضت منصرفة من مجلس أمها ، كاسفة تبكى .

ودعت جنان مرزوقا ، وأعلنت إليه أنها سعيدة بخطبته . وفى الغد من ذلك اليوم عقد قرانهما ، وانتقلت جنان إلى منزله ، تاركة ولديها مع حاشية من الخدم ، ومع المربية التى كفلتهما منذ مولدهما ، فكانت منهما بمثابة والدتهما .

* *

كان أكبر همِّ « جنان » بعد أن انتقلت إلى بيت زوجها ، أن تنجب طفلا ، يكون آية شبابها وحيويتها ، ومحبتها زوجها ، ومحبته إياها . ولكن أشهرا انقضت ولم تحمل ، ورأت أن تستشير الأطباء فى الأمر وشجعها زوجها على ذلك ، لكن أشهرا أخرى انقضت ولم تحمل . وبدأت تساورها المخاوف ، وخيل إليها أن قوة خارقة ، قوة فوق الطب والأطباء ، يجب أن تتدخل لتحقيق بغيتها . وتذكرت صديقات لها ، تعوقن عن الحمل فى شبابهن ، ولم ينجح الطب فى إرضاء أمومتهن ، فذهبن إلى مراغة سيدى المغاورى فى المقطم ، وإلى كنيسة مارى جرجس وبه دير البنات بمصر القديمة . وتمرغن بالمراغة أمام

الشيخ المسلم ، وتمسحن بأعتاب القديسة المسيحية ، فأنعم الله عليهن بالحمل . . . فما ضرها لو صنعت صنيعهن ، لعل الله يرزقها هذا الطفل ، الذى تصبو إليه من كل قلبها ، لتزداد قدرا عند زوجها ، فيزداد حبًّا لها وإعزاز ؟ .

ولـكن . . . أتراها تستطيـع أن تفعل ذلك ولا تذكره لمرزوق ؟ ! .

وهبها ذكرته له ، فأبى عليه إيمانه بالطب أن يقرها على رأيها.. ولـكن . . . هل يغلب هذا الإيمان بالطب رغبته الملحة فى أن يكون أبا لطفل منها ؟ . . . وماذا عليها إذا صنعت ما تريد من تلقاء نفسها واستمرت فى العلاج الطبى ، فإذا حملت أظهرت زوجهـا على كل ما صنعت ! . . .

واستقر عزمها عند هذا الرأى ، واختارت الأوقات التى يشغل العمل فيها زوجها عن منزله ، وذهبت إلى المغاورى فى مراغته ، وذهبت إلى مارى جرجس فأتمت عندها مراسم الحمل . ومن عجب أنها حملت بعد ذلك بشهرين اثنين. فأفضت إلى زوجها بكل ماصنعت، فعاتبها عليه زوجها عتابا لا يبلغ اللوم ، لأن غبطته بحملهـا لم تسمح بلومها أو بالتثريب عليها .

وفى أثناء حملها ، تقدم يخطب ابنتها شاب كريم المحتد ، من أسرة عريقة ، ويشغل وظيفة فى الدولة لا بأس بها . ولـكنه ضيق الثراء ، لايحتمل مرتبه وإيراده مجتمعين ماتعودت سوسن من عيش السعة . . وقابلته سوسن مرة واحدة بحضرة أمها ، ثم قالت إنها تقبله زوجاً لها . واحتجت لقبوله بشبابه وبأسرته ، وبمؤهلاته ، وبأنها تستطيع أن تتعاون معه على الحياة ، فإن ضاق بهما الرزق فى أول الأمر، فسيكون لهما فيه سعة من بعد .

وابتسمت أمها لقولها ، إذ أيقنت أن ما أغراها بقبوله وسامته ، وحلو حديثه ، ورقة نظراته ، أكثر مما أغرتهـــا أسرته العريقة ، وحسبه الـكريم !

لـكن ابتسام جنان لم يمنعها من الترحيب بالشاب ، وعقد خطبة ابنتها عليه ، وانتظار الجهاز والزفاف .

ثم أنجبت جنان غلاماً طار أبوه بمولده فرحاً ، وأقام له حفل سبوع عوّضه عن حفل الزفاف ، الذى كان يزمع أن يقيمه لنفسه لو أنه تزوج عذراء ، وزاده مولد الطفل غراماً بجنان ، فجعل كلما دخل عليها ، يقبلها ويقبل الطفل معها ، ويشعر بأن هذا الطفل هو امتداد حياته بالفعل ، وأنه سيكون جراحا مثله . ألم يكن المصريون القدماء يحرصون على أن يحترف الولد حرفة أبيه ، لتبقى الحرفة متوارثة فى

الأسرة ، وليكون الأبناء ورثة الآباء فى عملهم ، كما أنهم ورثتهم فى مالهم ، وليبقى اسم الأسرة عنوان سعيها وجهدها ! .. فليكن هذا المرزوق الطفل جراحاً . وليكن أبناؤه وحفدته جميعاً جراحين ، ليظل إسم الدكتور مرزوق باقياً على الزمان .

ووقف مرزوق فى حفلة السبوع يحدث سوسن ، ويذكر لها أن مولد أخيها الطفل يذكره بقولها القديم إنها تشعر حين تحدثه أنها تحدث أباها ، ويذكر أنه سعيد بذلك ، لأنه اليوم رب لأسرة لاتقف عند الطفل الوليد وأمه ، بل تتناول سوسن وأخاها كذلك ، وأنه ينتظر بفارغ الصبر أن يصبح جداً يوم ترزق سوسن طفلا عما قريب إن شاء الله .

وبعد أسابيع ، زفت سوسن إلى خطيبها ، وانتقلت إلى الطابق الظريف الذى فرش فيه جهازها . وحملت عبء بيتها وتولت إدارته . وأقيمت لها فى هذه المناسبة حفلة دعا الدكتور مرزوق إليها كل أصدقائه مع من دعوا من قبل العروسين وأهلهما !

واستدار العام ، منذ ولد ابن مرزوق ، فإذا حفلة أخرى تقام لابن سوسن ، وإذا جنان تصبح جدة بالفعل ، ومرزوق يصبح جداً بالتبعية . ثم لايمنع ذلك جنانا من أن تشعر وهى ترضع ابنها ، بأنها لاتزال فى حيوية الشباب ونضارته .

وفى السنوات الخمس التـــالية ، رزقت سوسن بنتاً وإبناً ، وأصبحت بذلك أما لثلاثة أولاد ، ولم ترزق جنان غير ذلك الغلام الذى استعانت على حمله وولادته بسيدى المغـــاورى وبالقديسة مارى جرجس !

وفتح الله باب الرزق لسوسن وزوجها ، وابتسم لها الدهر ، فنثر الورد والرياحين فى طريق حياتهما . وبدأ أطفالها يملأون البيت عليهما غبطة ومرحاً ويشعرونهما بسعادة لاتعدلها سعادة . وأخذت سوسن تظهر مع زوجها فى المجتمعات الأنيقة ، وتقص على أمها الحين بعد الحين ماترى فيها ...

ومالت أمها إلى مثل هذا اللون من الحياة ، فأفضت إلى مرزوق برغبتها ، فأقاما فى دارهما حفلة جمعا فيها نخبة من أهل العاصمة ، مصريين وأجانب . وأتاح ذلك لها أن توجه إليهما الدعوة لكل حفلة يقيمها المصريون أو يقيمها الأجانب بالقاهرة .

وكانت سوسن تبتسم أحياناً ، حين ترى أمها فى هذه الحفلات معتمدة على ذراع الدكتور مرزوق ، والبشر والسعادة يفيضان من ملامحها ، وتزداد سوسن ابتساماً يوم ترى أمها فى هذه الحفلات وقد أتقنت صبغة شعرها ، وبدت وكأنها لاتزال فى الثلاثين من سنها ،

رغم خطوط مست بهـا الـكهولة جبينها ، وكادت تتخطاه إلى وجناتها !

وكلما رأت سوسن أمها بالغت فى العناية بزينتها ، حرصت على أن تجعل من شبابها تاج كل زينة ، وأن تبدو فى بساطة ، تتألق بحكم سنها بهجة ونوراً . .

وكثيراً ماتندَّر بعضهم بهذه المنافسة بين الأم وابنتها ، وقد ذكروا فى أثناء تندرهم كيف أخذت الأم خطيب ابنتها ، وأولعت به غراماً ! . وكان بعض هذا التندر يبلغ سوسن فلا تعبأ به . لقد بسم الزمان لها ولزوجها وبنيها ، فليقل من شاء ماشاء ، فلن يجنى قول على سعادتهما ولن ينقص ما أسبغه الله عليها ، وعلى زوجها وبنيها ، من نعمة وعافية !

* *

وإن سوسن لفى متاعها بهذه النعمة السابغة ، وفى سعادتها بمحبة زوجها إياها ، محبة كلها الشعر بأعذب ألحانه وأنغامه ، وفى طمأنينتها إلى هؤلاء البنين ، يتخطون متن الحيـاة على هون ، ناجحين فى دراستهم ، فخورين بأبويهم ، إذ مرض هذا الأب العزيز والزوج الوفى ، مرضا حار الأطباء فى تشخيصه ، وانقطعت سوسن لتمريضه ، فلم يعد أحد يراها فى المجتمعات والحفلات ، ولم تعد دارها مضيئة

كعهد الناس بها ، منذ أفاء الله على أصحابها الثراء والنعيم ، بل خيمت عليها سحابة من كآبة كانت ترتسم على وجوه الأطفال أبنائها ، وتحول بينهم وبين ما ألفوه من مرح ومسرة !

وطال بالرجـل الشاب المرض ، فنقل إلى المستشفى ، وأقامت سوسن إلى جواره ، وكانت أمها تزورها الحين بعد الحين ، تسأل عن صحته ، وترجو له الشفاء والعافية .

وكان الدكتور مرزوق يزور المستشفى كل يوم لهذا الغرض . وجلس يوماً بجوار المريض على سريره يطمئنه ، فنظرت إليه سوسن نظرة ، فيها الأسى والألم ، وكأنما تقول فى نفسها : أيـكون هذا الرجل الذى يكبر زوجى ويكاد يكون فى سن والدى ممتلئاً صحـة ونشاطاً ، وتذبل نضارة هذا الزوج الشاب العزيز ، فما يدرى أحد ما مصيره ؟ ! . . . لشد مايخفى الغيب علينا ، فلم يدر قط بخلدى يوم خطبنى مرزوق فرفضت خطبته لفارق السن بينى وبينه ، أن أرى المنظر الذى أراه الساعة ، والذى يفتت قلبى لوعة وهمًّا .

وبعد أشهر قضاها المريض بالمستشفى ، أدركت سوسن من نظرات الأطباء الذين كانوا يعودونه ، أنه موف على أجله ، وفى منتصف الليل من ذلك اليوم ، اختاره الله إلى جواره .

وحزنت سوسن عليه أشد الحزن ، وانقطعت من يومئذ عن كل مجتمع وكل حفلة . وهى لاتزال تلبس السواد عليه إلى اليوم . أما الدكتور مرزوق ، فلا يزال متمتعاً بصحته ونشاطه ، ولا تزال جنان حريصة على أن تصبغ شعرها ، وتستعين بكل وسائل الطب والتجميل لتحتفظ ببقية من جمال يوشك أن يولى ، ولتحتفظ بالدكتور مرزوق ، وبحيويته ونشاطه .

ولله فى خلقه شئون !

بأعمالكم تؤجرون

كان رب الأسرة من أعيان قرية فى مصر الوسطى ، وقد أنجب ست بنات ، ولم ينجب لهن أخاً ، ثم توفى فى بواكير كهولته تاركاً لأرملته وبناته ثروة معقولة . وكان ثلاث من بناته قد تزوجن فى حياته وبقى ثلاث ينتظرن الزواج .

وكانت « زهرة » صغراهن أرقهن طبعاً ، وأكثرهن خفراً ، وأملحهن وجهاً ، وهى بعد فى الثالثة عشرة . وطبيعى ألا يدور بخاطرها تفكير فى الزواج قبل أن تتزوج أختاها اللتان تكبرانها .

وكانت أمهن من بنات الأعيان فى القرية ولم تكن تفكر فى الزواج بعد زوجها فإذا ألمحت إحدى صاحباتها إلى شىء ، قالت : الخير أن نتحدث عن زواج بناتى الثلاث ! .

وكان لهذه السيدة الأرمل ، قريب يقيم بالإسكندرية ، فى شىء من سعة الرزق يستمتع به مع زوجته وبنيه . وبعد زمن جاء هذا

القريب إلى القرية ، ليحضر زفاف الكبرى من البنات الثلاث اللاتى لم يتزوجن فى حياة أبيهن . فلما أزمع العود إلى الإسكندرية ، قال لقريبته :

— إن زهرة لا تزال فى بواكير صباها ، فماذا عليك لو أخذتها إلى الإسكندرية ، تعيش معنا ، وتجد فى حياة المدينة هناك ما يرفه عنها ، وما يصقلها ؟ ... إنها فتاة رقيقة حسنة الاستعداد ، فحياتها فى الإسكندرية تخلق منها شخصاً آخر ، تطمئنين له وتسعدين به .

وترددت الأم الأرمل ، فألح عليها قريبها حتى قبلت ، وسافرت الفتاة مع خالها إلى الثغر . وانضمت إلى أسرته فيه . ولم تضق بها زوجه ، بل وجدت فيها معواناً على خدمة البيت ، ووجدت فيها رغم حيائها ذكاء ومرحا يتفقان مع ذكائها هى ومرحها . فأبدلتها من ثوبها الريفى ثيابا حضرية أنيقة ، وجعلت تصطحبها معها إلى الأسواق ، لترى وتسمع وتتعلم حياة الحضر .

وفرحت الفتاة بهذه الحياة الجديدة ، فلما انقضى على مقامها بالإسكندرية عدة أشهر ، كانت قد كسبت ثقة خالها وزوجته وأبنائه ، فكانت الزوجة تعهد إليها فى شراء ما لا يتسع وقتها لشرائه .

وبعد عام وبعض العام ، أصبحت زهرة فتاة سكندرية ، صقلتها حياة المدينة ، وجعلت منها فى هندامها وحركاتها وحديثها ، فتاة حضرية بالمعنى الكامل ، وجعلت من ملاحة وجهها ، واعتدال قوامها ، وشديد خفرها ، ورقة حديثها ، مسرحا لعين كل شاب يراها ويرى ابتسامة ثغرها الجميل !

وكان لامرأة خالها قريب قليل التردد عليها ، فلما رأى زهرة أول حضورها من الريف ، وسمع حديثها الصعيدى سخر منها ، وإن أعجبته ملاحة وجهها . وكان شابا ماجنا ، ولكنه كان ظريفا ذكيا . وكان « أسعد » هذا ربعة فى الرجال ، عريض المنكبين ، مفتول العضل ، أشربت بشرته حمرة جعلت زرقة عينيه أكثر وضوحاً ، وشعره الذهبى أكثر جمالا . وكان كلما رأى زهرة عابثها بصعيديتها وإن أعجب فيما بينه وبين نفسه بما كان يطرأ على تكوينها من تغيير ، وفى سلوكها من اندماج فى حياة هذه المدينة ، التى ولد بها وتربى فيها ، فهى عنده الكمال .

فلما تجاوزت زهرة السابعة عشرة ، وكملت أنوثتها فأصبحت فتنة للأعين ، أخذ أسعد ينتهز الفرصة لمغازلتها كلما خلا له الجو من حولهما . لكن الفتاة كانت تصده ، ويبلغ صدها إياه أحيانا مبلغ

العنف ، وتشعره بأنها ليست من هاتيك اللواتى يسهل استهواؤهن من بنات المدينة ، بل هى صعيدية ، النار عندها ولا العار ، والمغازلة هى أول العار .

وجرح مسلكها هذا كبرياء أسعد ، واعتزازه برجولته وجمال صورته ، فرأى ألا بد له من أن يملك هذه الفتاة التى تتحداه وتتعالى بجمالها عليه . وأول ماصنع من ذلك أن بدل سلوكه معها كل التبديل . فكان إذا انفرد بها ، أظهر لها من الاحترام ما يكاد يعدل عدم الاكتراث لجمالها ولرقتها . وإذا لقيها فى الطريق تحمل مشترياتها ، أسرع إليها فى أدب جم ، وحمل هذه المشتريات عنها . وإذا جاء إلى بنات قريبته ببعض الهدايا حرص على تنويعها ليجىء لزهرة بهدية أنفس وأجمل . وكثيراً ما كان مجونه يضيق بتكلفه هذا السلوك المخالف لطبعه لكنه قدر أنه لن يبلغ غايته إلا إذا كسب ثقتها . ولا رجاء فى كسب هذه الثقة إلا أن يعاند فطرته ، ويجرى مع زهرة على غير سجيته ، وإن كلفه ذلك عناء .

وانتهى إلى كسب ثقتها ، بعد أشهر من المجهود الذى كان ينوء به ، فلان له حديثها ، وراحت تصغى فى ارتياح إلى حديثه ، فشجعه ذلك على المضى فى خطته ، فكسب قلبها كما كسب ثقتها

وبخاصة حين أخذ يدخل فى روعها أن أسعد الناس من تصبح هى زوجته !

وسعدت هى بتلميحه ، وتمنت لو يصبح هو هذا الزوج ، فحياة الاسكندرية غير حياة قريتها . وأسعد ظريف رقيق رغم مجونه . ترى أترضى أمها عنه ؟

واغتبط أسعد حين رآها أسلس قياداً ، ثم ازداد غبطة حين شعر بأنها تزداد ضعفاً أمامه يوماً بعد يوم ، فلا تأبى عليه أن تلقاه خارج بيت خالها ، وأن تسير معه إلى حيث يريد ، ثم لا تأبى عليه أن يقبلها إذا كانا بعيدين عن الأعين .

ودعاها فذهبت معه يوماً إلى بيته ، سعيدة بأن تتعرف إلى الدار التى ترجو أن تصبح يوماً دار الزوجية . وأعجبت بموقع الدار وأثاثها ، وفرح قلبها بما أغدقه عليها أسعد من كرم ، ومن تدليل وإعجاب ولم يبق فى ظنها أى ريب بعد هذا كله فى أنها ستصبح له .

وزارت دار أسعد بعد ذلك غير مرة وفى كل مرة تزداد الكلفة بينها وبينه ارتفاعاً ، فلما أصبحا من رفعها على مقربة من النهاية ، لم يأب أسعد أن يحدثها عن زواجه منها . عند ذلك آمنت أنها أصبحت فى حكمه وأنه أصبح وله من السلطان عليها ما للزوج على زوجه .. فأسلمته

كل نفسها ، فى انتظار اليوم القريب ، الذى يعقد فيه زواجهما !

ووعدها أسعد أن يخاطب خالها فى تحديد يوم العقد عند أول فرصة تسنح لذلك ، لكنه أخذ يبتدع المعاذير عند تردد خالها ، ثم ذكر لها أن خالها رضى بالزواج وأنه سيكتب إلى أمها لتحضر العقد !

وفى أثناء ذلك أيقنت زهرة أنها حامل فزفت النبأ إلى أسعد ، وألحت عليه أن يعقد القران ولا ينتظر حضور أمها !

وكان أسعد كاذباً فى كل ما قال . . . فهو لم يخاطب خالها فى شىء ، ولم يكتب خالها بطبيعة الحال إلى أمها لتحضر عقداً لا يعلم أيهما عنه شيئاً !

وكان أسعد كاذباً كذلك يوم ذكر لها أنه سيتزوجها ! . . . فهو إنما أراد أن ينتقم لغروره من كبريائها يوم صدته بعنف أول ماغازلها . فلما طلبت إليه أن يعجل بعقد قرانهما ولو لم تحضر أمها ، عاد يختلق المعاذير ، ثم أخذ ينقطع عنها . ثم علمت أنه خطب فتاة غنية من بنات الإسكندرية . عند ذلك سقط فى يدها ، وأيقنت أنها سقطت فى مهواة ، تبيح لأهلها أن يقتلوها تخلّصاً من عارها !

وماذا تفعل ؟ . لقد ذرفت الدمع سخيناً ليالى طوالا ، لكن الدمع لن يرد أسعد إليها ، ولن يرفعها من الوهدة التى تردت فيها .

ليس أمامها إلا أحـد طريقين : إما أن تنتقم من أسعد ، وإما أن تنتحر ! ولـكن كيف تنتقم منه ؟.. أوليس خيراً لو أنها سعت إليه ، لعله يعدل عن الزواج الذى سمعت به فيعود إليها ؟ . ذلك أمر بعيد الاحتمال ، ولـكن ما لها لا تجربه ؟

واستقر فى نفسها ذلك العزم ، فاختارت ساعة من النهـار ، حسبت أنها تلقاه فى أثنائها فى بيته. وذهبت إلى هناك ، ودخلت إليه . فلما رآها أقبل عليها إقبال العاشق على معشوقته ، فاتحاً ذراعيه ليعانقها ويقبلها . وما إن رأت ذلك منه حتى أجفلت وتراجعت وقالت :

ـ جئتك أستنجزك وعدك بزواجنا ، فأنت تعلم أن أهلى فى الصعيد يقتلوننى لا محالة إذا لم نتزوج بعد الذى كان !

وأجابها أسعد بابتسامة ساخرة :

ـ ليتنى أستطيع ! فأنت لا ريب تعلمين أننى خطبت ، ولا أقدر أن أتزوج اثنتين .

قالت : « لـكنك وعدتنى بالزواج قبل أن تخطب » .

وأجابها : «وهل يصح للفتاة الشريفة المتعالية ، المعتزة بكبريائها، أن تسلم نفسها قبل أن يعقد زواجها ؟ . . ذلك يا فتاتى هو ما حملنى على أن أخطب بعد الذى كان ، فإن من تبيح عرضها بكراً لا تؤمن

عليه ثيباً . ومن لى وقد دنست طهر بكارتك ؟ ألا تدنسى فراش الزوجية ؟ !»

فزعت زهرة حين سمعت هذا الكلام ، فاضطربت وكادت تلقى بنفسها على قدميه باكية مسترحمة . لكنها سرعان ما ردها اليأس منه إلى صوابها ، فجمعت قواها ، ونظرت إليه فى ازدراء ، وقالت :

ـ تباً لك من وغد مخادع ! . . ألى أنا تقول هذا الكلام ؟ . بل قل إنك أغراك المال فهزأت بالشرف ! . لقد رأيتنى بلغ حبى إياك شغاف نفسى وحبة قلبى ، فنصبت لى كل شباكك ، واستدرجتنى باسم الزواج فكان ما كان . لقد كنت أحسبك إنساناً ، فإذا أنت حيوان وفيك كل بهيمية الحيوان . وفيك خسة يسمو عليها كثير من الحيوان . أما وأنت كذلك ، فليس لى إلا أن أبصق فى وجهك ، وأدعو الله أن ينتقم لى منك !

وبصقت فى وجهه ، ثم ارتدت على عقبيها مسرعة خارج الدار !

أما هو ، فمسح وجهه ، وابتسم وكأن لم يكن شىء . وقال فيما بينه وبين نفسه :

ـ مسكينة !. لكنى انتقمت لنفسى منها ، لقد أذللت كبرياءها التى واجهتنى بها أول ما ملقت جمالها . ثم أذللتها هى حتى تعلم أن

الرجال لا يعاملون كذلك .

وبلغت زهرة الـكورنيش مضطربة ، يهتز كل جسمها من شعر رأسها إلى أخمص قدمها . ثم إنها ركبت الأتوبيس إلى سيدى بشر ، معتزمة أن تلقى بنفسها فى لجة البحر الخضم .

فلمـا بلغت غايتها ، نزلت على الدرج إلى رمال الشاطىء ، وتقدمت إلى ناحية البحر ، حتى صارت عند ملتقى الموج بالرمل ، وهنالك جلست منهدة فى إعياء ، وقد أنهكتها الانفعالات التى مرت بها طول يومها . فلما أنعشها هواء البحر وتلفتت حولها فلم تر أحداً ، انخرطت فى بكاء كأنما تودع هذه الدنيا ! . ثم إنها نظرت إلى البحر وموجه نظر المحتضر إلى قبره ، فانزعجت . ورمى البحر إلى الشاطىء خشبة قذفتها الأمواج ، فتصورت زهرة جثتها يقذف بها البحر كهذه الخشبة ، وخيل إليها أن أسعد مرّ بها وعرفها ، فافتر ثغره عن بسمة الرضا ، لأن موتها ستر لعاره !

وساورتها هواجس شتى من هـذا القبيل ، فقامت مترددة : أتغامر فتخوض موج البحر إلى لجته فتنتحر فيه ؟ . أم ترتد أدراجها تعاود التفـكير فى أمرها ؟

ودفعها الحرص على الحياة فارتدت إلى الطريق ، وعادت إلى خالها ، مشتتة الذهن ، سقيمة الوجدان !

وإنها لتعانى قلق النفس واضطراب الخاطر ، إذ تناول خالها رسالة من أمها تذكر فيها أن أختها الثانية خطبت ، وأنها ستزف بعد أسبوع ، وكان طبيعياً أن تعود مع خالها إلى قريتها لتحضر هذا الزفاف ، وأن تبقى بعد ذلك مع أمها ، تؤنس وحدتها، وتقوم بخدمتها.

ورحبت بها أمها ، ورحب بها أهلها ، وأكبروا رشاقة هندامها، وجمال ثيابها وحديثها حديث الحضر . وانخرطت هى فى زحمة الفرح الشامل الذى يسبق ليلة الزفاف ، فإذا جن عليها الليل ، وآوت إلى مخدعها ، عاودها قلقها واضطرابها وأخذت تفكر فى المصير المظلم الذى ينتظرها .

وزفت أختها ، وانتقلت إلى بيت زوجها وعاد خالها إلى الاسكندرية وبقيت هى مع أمها ، وقد أحاط بها سكون الريف .

ولاحظت الأم وجومها ، وطول تفكيرها ، بمالا يتفق مع شبابها ، وما عرفته عنها فى صباها من دوام ابتسامها وحلو مرحها . فلم تعر ما لاحظته من ذلك أول الأمر بالا ، إذ خيل إليها أن انتقال الفتاة من المدينة إلى الريف ، ومن حياة الإسكندرية الصاخبة إلى حياتهم الرتيبة المتشابهة هو سبب وجومها ، ولكن هذا الظن أخذ يتبدد حين رأت زهرة تنخرط فى البكاء كلما خلت إلى نفسها . فإذا رأتها مقبلة عليها حاولت تجفيف دمعها .

فلما طال بالأم ما ترى من ذلك ، نازعتها الوساوس .

وأخيراً ، ذهبت إلى ابنتها ، وجلست إلى جوارها ، وقالت لها فى حنان وعطف :

— خبرينى يا ابنتى . . . مابك ؟ . . إننى أراك منذ جئت من الإسكندرية مهمومة كثيرة البكاء ، وأرى ذلك كله يعبث بنضرة شبابك ، أفتضيقين بحياة القرية معى إلى هذا الحد ؟ . . ألست أنا أمك التى تحبك حتى لتؤثرك على نفسها ؟ . . وهل تخفى بنت سرها على أمها ؟ .

لم تجد زهرة ما تجيب به على أسئلة أمها إلا أن انخرطت فى بكاء مرير يمس قلب الأم إلى شغافه ، وكأنما كشف عن بصيرتها فى هذه اللحظة ، فنظرت إلى ابنتها وجلة وقالت :

— هل خدعك يا ابنتى فى الإسكندرية أحد ؟ . . قولى . . لا تخافى ! . . . إن سرك من صدر أمك فى بئر سحيقة فلن يطلع عليه أحد ! أنت ابنتى وضناى ، فما يسوؤك يسوؤنى ، وما يحزنك يحزننى . فقولى . . ولا تخافى ! .

وبعد تردد طويل ، وبكاء مر ، قصّت زهرة على أمها قصتها مع أسعد ، وكيف وعدها بالزواج ، وكيف خانها بعد أن عرف حملها ، وجرى وراء فتاة غنية من بنات الإسكندرية ! .

وارتاعت الأم لما سمعت، وتمنت لو انشقت الأرض فابلعتها وابتلعت ابنتها معها، فطوت سر الآثمة المسكينة فى جوفها ! .. فلما أفاقت من روعها، أخذت تفكر فى الأمر، وكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟

لو أن لزهرة أباً أو أخاً، لكان مصيرها أغلب الأمر أن تقتل وتدفن ليدفن معها عارها .

لكنها أم، ولا يطيق قلبها أن تتصور فتاتها مقتولة أمامها . وهى إلى ذلك امرأة شريفة من بنات الأعيان، فلاتستطيع أن تتصور العار يلطخ اسم أسرتها . لا بد إذن من أن يدفن هذا السر فلا يقف عليه أحد، ولا يتحدث عنه أحد . والجنين المستكن فى بطن ابنتها هو آية هذا السر، فإذا أمكن التخلص منه، من غير أن يعرف أحد أمره، رضيت أمومتها ورضيت — إلى حد ما — كرامتها، وأمكن أن تعيش هى، وأن تعيش ابنتها وكأن شيئاً لم يكن، لأن أحداً لم يعرف السر !

وكانت تعرف قابلة فى قرية قريبة، لها بمثل هذه الأمور خبرة . وكانت تعلم منها أن الوسيلة لإجهاض الحامل، أن توضع الرحى على بطنها، وأن تدار حتى ينزل الجنين . تلك طريقة قاسية، بل وحشية . وقد تودى بحياة الحامل قبل أن تتخلص من جنينها .. ولكن ؟ ! .

لا مفر من الالتجاء إليها فى سر من الناس تخلصا من عار لا سبيل إلى التخلص منه إلا بها ... أو بالموت !

وفى الهزيع الأخير من الليل ، دعت الأم زهرة ، وجاءت بالرحى ، ولا تكاد تحمل كل شق من شقيها من غير أن تنوء به . ثم وضعتها على بطن الفتاة ، وأخذت تديرها والفتاة تتحمل ذلك ، تكظم كل صيحة تتردد فى صدرها ، حتى انفرجت أحشاؤها عن الجنين ما يزال علقة . فلما رأت الأم دم ابنتها ، والعلقة التى كادت تكون إنساناً ، رفعت رأسها إلى السماء ، حمداً لله أن ستر على إبنتها ، ثم أزاحت الرحى على الأرض ، وأسندت زهرة حتى ذهبت إلى فراشها !

وتنفس الصبح وقد انزاحت الغمة عن صدرها ، مؤمنة بأن أحداً من أهل القرية لم يقف على السر الرهيب ، وأن بنتها عادت ، وكأنها عذراء تهوى إليها القلوب .

وقضت زهرة أسبوعين فى فراشها ، ثم ردت إليها الحياة ، وعاودتها كل نضارتها ، وقد آمنت برحمة الله بها ، وبأن ما صنعته بها أمها فى إجهاضها — على قسوته ووحشيته — قد كانت الشفقة كل الشفقة . بل كان أروع مثل لحنان الأم فى أسمى مظاهره .

وأقامت هى ، وأقامت أمها ، تنتظران أن يتم الله رحمته بهما ، فتخطب زهرة وتتزوج ، ويصبح ما مضى من وزرها وخطيئتها نسيا منسيا .

وتعاقبت الشهور ، ولم يظهر من يخطبها ، هنالك عاودت الأم الوساوس ثم فكرت آخر الأمر فى قريب لها رقيق الحال ، ولكنه طيب القلب ، فأدنته منها ، وأوحت إلى زهرة أن تظهر اللطف به ، وأن تدفعه إلى أن يخطبها إلى أمها ، فلما فعل اشترطت عليه الأم أن يقيم معها فى بيتها ، فهى لا تستطيع البقاء به وحدها بعد أن تزوجت كل بناتها . وفرح الشاب بهذا الشرط ، وأصبح زوجاً لزهرة ، وربًّا للبيت ومديراً لشئون الأسرة !

وأنجبت زهرة منه ثلاثة بنين فى بضع سنوات ، ثم اختاره الله إلى جواره ، ووهبت زهرة نفسها بعده لعبادة ربها ، ولتربية أبنائها . وقد زادها مقامها بالمدينة صدر شبابها دقة فى العناية بأبنائها وحسن توجيهها لهم . فكان أبناؤها يتابعون دراساتهم ناجحين ، دخل أكبرهم الجامعة فى السادسة عشرة من سنه ، ومال أصغرهم إلى السينما وشغل بها . وشعرت أمه بأن الخير فى أن تقيم معهم بالعاصمة ، فاقترحت على أمها أن تأجر أميناً يباشر شئونهم ، وتباشر هى تصرفاته فى أثناء الصيف ، فإذا انتهوا من جمع الإيرادات ، وبدأت السنة الدراسية سافرت مع أولادها إلى مصر تراقبهم وتخدمهم !

وتابع أبناء زهرة دراستهم بنجاح ، وحصلوا على مؤهلاتهم

العليا ، وانخرطوا فى سلك الحياة ، وفتح الله عليهم فيها .

وكان أصغرهم الذى اشتغل بالسينما أكثرهم من الناحية المادية حظاً . فقد أصبح بعد سنين مديراً لإحدى شركات السينما الكبرى التى تدير منشآتها العديدة فى القاهرة والإسكندرية .

وفيما هو يوماً بالثغر ، جاء إلى مكتبه رجل محطم ، تبدو عليه آثار الفاقة ، ولا تنم كهولته عن سن متقدمة ، وطلب إليه فى رجاء ملح أن يسند إليه عملا عنده يرزقه ويرزق أولاده . وأثار منظر هذا الشيخ المهدم شفقة الشاب المدير ، وتمنى لو استطاع أن يجيبه إلى ما طلب ، وإن تبين من حديثه أنه لم يزاول من قبل عملا يؤهله فى الشركة لوظيفة ذات قيمة . وأشار عليه بأن يقدم طلبه ، ليعرضه على مجلس الإدارة ، وأن يمر عليه فى الساعة العاشرة بعد أسبوعين من ذلك اليوم ، فإن لم يجده بالمكتب وجده فى استراحة المكتب ، بالطابق الذى يعلو المكتب مباشرة .

هذا الكهل المهدم هو « أسعد » ، الذى تزوج من الفتاة الغنية بالإسكندرية ، بعد قصته مع زهرة ، وقد سلك بعد زواجه من تلك الغنية مسلك المترفين ، فكان يبعثر أموالها ، ويحسب أن هذه الأموال لا نهاية لها . ورزق منها بنين وبنات كانت تربيتهم تستنفد مالاً غير

قليل . مع ذلك ظل أبوهم على إسرافه وبعثرته . ونبهته زوجته إلى ذلك غير مرة ، فلم يرعو ، ثم اختلفا ، وانتهى خلافهما بالطلاق . وأخذت عليه زوجته أحكاماً بنفقة لأولاده منها ، وحبس مرة لعدم تنفيذها . ثم إنه دار يلتمس عملا يعوله ويعول أبناءه ، فذهب إلى مدير الشركة السينمائية لهذا الغرض . وأنس فى المدير الشاب شفقة عليه ، فمر عليه فى الموعد الذى ضربه له ، فلما رآه الشاب قال له :

ـ لقد عرضت أمرك على إدارة الشركة بالقاهرة . واستطعت أن أستخلص لك وظيفة تنال منها ١٥ جنيها فى الشهر !

وحدد له العمل الذى يقوم به ، فشكره « أسعد » على صنيعه ، وهو لا يعلم من هو ، لأنه لم يره قبل ذلك قط .

وبعد شهر ، جاء الشاب المدير إلى الإسكندرية ، ومعه والدته ، ونزل وإياها استراحة الشركة . وأراد « أسعد » أن يقابله لبعض عمله ، فقيل له : إنه فى الاستراحة . وأبلغ المدير ، فأمر بأن يصعد « أسعد » إليه ، فلما دخل الاستراحة تراجع مبهوتاً مبهور الأنفاس ، إذ رأى مع الشاب سيدة تتحدث إليه ، ورأى الشاب يخاطب زهرة خطاب الإبن إلى والدته ، واستدار الشاب إلى « أسعد » وقال له :

ـ انتظرنى هنا حتى أعود ، ولن أغيب أكثر من دقائق ، ثم

أراك وأنظر ما جئت فيه !

فلما هبط الشاب الدرج ، وغاب عن نظر أسعد وزهرة ، ألقى أسعد بنفسه أمامها وقال :

ـ الحمد لله الذى لم يحوجنى إلى غير ولدك ! . . وأرجو منك أن توصيه بى خيراً . ولا أحسبك تأبين علىّ هذه الكرامة ، جزاء ما كان بيننا من مودة !

ونظرت إليه زهرة فى كبرياء وقالت :

ـ سأفعل ! وحسبى جزاء لك عن سوء ماضيك ، أنك أصبحت اليوم في خدمة ولدى ، بعد أن أبيت صدر شبابك أن أكون أنا فى خدمتك . لقد أردت يومئذ أن تحطم كبريائى ، فحطم الله كبرياءك ، وهذا عدل جزاك الله به ، وهو أعدل الحاكمين !

وطأطأ أسعد رأسه فى صَغار وهوان وقال :

ـ فاغفرى لى يا زهرة ما كان من خستى ونذالتى ، فأنا أشد ما أكون اليوم حاجة إلى عفوك ومغفرتك !

وتابعت زهرة نظرتها المتعالية وقالت :

ـ إن الله هو الذى يغفر ، أما الناس فلا يغفرون . وهو يغفر للتائب الصادق الندم ، وأحسبه غفر لى ما دام قد رزقنى هؤلاء البنين

لكننى ما أزال أشعر بالذلة كلما ذكرت أننى وقعت فريسة لخستك ، فكأن الضمير لا يغفر ، كما أن الناس لا يغفرون ! .. فتستطيع أنت أن تكفر عن ماضى آثامك بالتوبة والندم لعل الله يرحمك .

وخفض الرجل رأسه ، ودخلت هى مخدعها ، وأقبل المدير الشاب يسأل أسعد ما يريد .

الأسرة الثانية

توفى فى الخمسين من سنه ، وهو فى ذروة مجده ، فقد كان عالما فاضلا وكاتباً بارعا ، وأستاذاً يحيطه تلاميذه ومريدوه وزملاؤه بكل تجلة واحترام ، ويعجب به قراؤه غاية الإعجاب . وقد انتخب عميداً لكلية الآداب غير مرة . لذلك كان الذين شيعوا جثمانه لا يحصون عدداً ، وكان ما كتبته الصحف فى رثائه فخراً باقياً لذرية أنجبها .

مع هذا كله ، لم يخلف تركة تذكر !

وقد توفى عن زوجة وثلاثة بنين ، أما زوجته « رجاء » . فكانت سنها تدور حول الأربعين ، ولكنها كانت تبدو وكأنها لم تجاوز الثلاثين إلا قليلا . وكانت على حظ عظيم من الجاذبية ، كان فى عينها بريق يَمسُّك إذا نظرت إليها ، فلا تزال محدقا بها ، مأخوذاً بما ترى من حلو ملامحها ، وما تسمع من سحر حديثها ، وكانت لنبرة صوتها موسيقى ، قلّ أن وهبت واحدة من بنات حواء مثلها ، طلاوة واستهواء لسامعها . وكانت معتدلة القوام ، ممتلئة فى غير سمنة . وكانت تحب زوجها كل حياته أعمق الحب ، وترى مجده تاجا

لهـا ، تزدان به ، وإن لم تتزين بحلية ثمينة تباهى بهـا غيرها من النساء المتزينات .

وكان أكبر ولدها ، شاب فى الثانية والعشرين من سنه . وقد أتم دراسته الجامعية ، وحصل على إجازة الآداب بتفوق . على أنه كان أشد اعتزازاً بمجد أبيه ، منه بتفوقه . وكان يرجو أن يسير على نهج هذا الوالد الكريم ، فيبدأ معيداً بكلية الآداب لينتهى عميداً لهـا ، كما كان أبوه عميدا .

وكان لعزيز أخت تصغره خمس سنوات ، وأخ يصغر هـذه الأخت خمس سنوات كذلك .

وقد لبست الأسرة كلها الحداد على ربها ، وتولاها حزن عميق على هـذا المصاب الفادح . وكانت رجاء أشـد من أبنائها شعوراً بالكارثة ، فتركة أبيهم ومعاشه ، لايكادان يكفيانهم العيش الكريم الذى تعودوه طول حياته . صحيح أن عزيزاً يوشك أن يعين معيداً بالكلية ، فيعينهم مرتبه بعض الشىء . لكن هذا العون لم يكن شيئا مذكورا ، إلى جانب ما كان الأب يكسبه من قلمه ، ومن كتبه ، ومن المرتب الذى كان يزيد على ضعف معاشه .

* * *

وبعد زمن ، انقضت فى أثنائه المواسم المألوفة للحزن على الذين يتوفاهم ربهم ، تقدم لخطبة رجاء تاجر واسع الثراء ، توفيت زوجته منذ أشهر ، تاركة له ولداً وحيداً . ونمى إلى عزيز نبأ هذه الخطبة فذهب إلى أمه يسألها : أحق ماسمع ؟ . وأجابته رجاء :

— هو حق يابنى . وأنت شاب عاقل ، تقدر الأمور حق قدرها . أنت تعلم كم كنت أحب أباك ، وكم كنت فخورة به ، وكم كنت أتمنى — لو استطعت — أن أظل على الوفاء لذكراه بعد موته ، كما وفيت له فى حياته . لكنك تعلم كذلك أنه تركنا ولا تكاد تكون له تركة تقيم الأولاد . ولا أريد أن تعيش أختك ، ويعيش أخوك ، فى ضيق بعد أن تعودوا رفه الحياة وسعتها . هذا إلى أننى امرأة لم تتخط الشباب ، ولا أريد أن يتحدث الناس عنى بكلمة تؤذيك ، أو تؤذى أختك وأخاك .

كان عزيز يسمع هذا الكلام من أمه ، ولا يكاد يصدق أنها هى التى تتكلم . فمعنى ما تقول أنها قبلت خطبة هذا التاجر لثروته ، وأنها تريد أن تعيش أخته ، وأن يعيش أخوه ، من هذه الثروة التى لم يكسبها أبوهم . فكأنما تريد أن تبيع نفسها من أجل ولديها !

وصمت الشاب طويلا ، بعد أن أتمت أمه حديثها ، ثم قال :

— أتعرفين سمعة هذا التاجر ، الذى تريدين أن يحل منك مكان أبى ؟ ! .. أو لم تسمعى ما يقوله الناس عن « شحاته » هذا ، وكيف كنز ماله وجمع ثروته ؟ . أما سمعتك فأمرها بيدك لا بيد الناس . وما كنت أحسبك تتزوجين بعد أبى ، لأى سبب أو لأى اعتبار . وأنا لم أحضر اليوم لأناقشك ، بل لأنهى إليك أنه إذا تم هذا الزواج فلن ترى لى وجهاً ما حييت !

قال عبارته هذه فى غضب ، وانتفض واقفاً وانصرف .

لكن السيف كان قد سبق العذل ، فقد كان بعد الظهر من ذلك اليوم محدداً لعقد الزواج ، ولم يكن فى مقدور رجاء أن تتراجع ومكان العقد بيتها ، والسيد « شحاته » سيحضر الموعد لامحالة . ثم إنها لم تجد لثورة عزيز عذراً يسوغها : إنها تريد الخير لنفسها ولأبنائها ، وتريده حلالا طيباً ، فإذا صح أن يغضب ولدها لذكرى أبيه ، فمن الواجب عليه أن يقدر ظروفها . وظروف إخوته ، وأن يقدر ظروفه هو كذلك . فهو لم يتول بعد عملا يرزقه . وهبه تولى هذا العمل غداً ، واستطاع أن يعيش منه عيشاً متواضعاً ، فليس من حقه أن يفرض على أمه وعلى أخويه حرماناً لم يألفوه فى حياة أبيه ، أو أن

يتهم أمه بعدم الوفاء لأبيه ، لأنها أرادت أن تكفل لأبنائه العيش الكريم !

* * *

تم العقد فى الموعد المضروب ، وانتقلت رجاء وولداها فى مساء اليوم نفسه إلى منزل السيد شحاته بالزمالك . أما عزيز ، فقضى ليله فى بيت قريب لأبيه ، ومن حسن حظه أن قرار تعيينه معيداً فى كلية الآداب أبلغ إليه بعد أيام قلائل . وزاده الحظ مواتاة ، أن بعثت حكومة العراق تطلب إلى مصر أساتذة ومدرسين ، فسعى عزيز سعيه ، فانتدب بإحدى هذه الوظائف . وبعد أسابيع ، سافر إلى بغداد ، من غير أن يرى أمه ، ليتولى عمله فى عاصمة الرشيد . وبذلك برّ بإنذاره أمه أنه لن يراها إذا تزوجت بعد أبيه !

انتقلت رجاء إلى منزلها الجديد ، وكان هذا المنزل أشبه بالقصر فى بنائه ، وإن لم يكن شبيهاً بالقصر فى فسحة أرجائه . وقد شاده شحاته من سنين قليلة ، بعد أن قضى عمره فى الكفاح والحرمان ، يسكن بيتاً قديماً بحى السكاكينى ، ويخرج منه كل صباح مبكرا إلى محل تجارته ، يقضى فيه النهار بطوله ، فإذا أمسى عاد إلى بيته ، وقلما يخرج منه إلا لعمله . فلما قارب الستين ، وكان الله قد وسع بفضل

الحظ فى رزقه ، رأى من حق نفسه ، وزوجه وولده ، أن يعيش مابقى من سنى حياته ، فى سعة تتفق مع ثرائه . وتعوض عليه كفاحه وحرمانه ، وتسمو به فوق ما كان الناس يلصقونه به من شح وتلاعب .

وقد أثار موقف عزيز من أمه فى ذلك اليوم غضبها منه ، وإن لم يغير قلبها عليه . وأدى ذلك ، منذ انتقلت إلى بيتها الجديد ، إلى أن تهب زوجها كل نفسها ، وأن تطمع فى أن يكون له منها بعد تسعة أشهر ولداً ، فقد مست كلمات عزيز صميم كرامتها ، فأثارتها بكبرياء هذا الشاب الذى ظن نفسه رجلا ، ونسى أنها أمه ، وأنها أكثر منه تجربة وحكمة ، وأبعد منه نظراً ، وأدق منه للأمور تقديراً . لذلك لم تحجب عن شحاته شيئاً عن نفسها ، غضبا من هذا الشاب ، الذى لم يرع حق أمومتها ، وما أوصى الله به الأبناء إحساناً بالوالدين !

وانقضت أيام وأسابيع ، وبدأت رجاء تحس الفرق الشاسع بين زوجها الأول وزوجها الثانى . ما أجمل المنزل الذى تعيش اليوم فيه بالقياس إلى الطابق الذى كان سكنها مع زوجها الأول ! . وهذه السيارة الفخمة ، التى تنتظرها كل صباح ، لتخرج بها إلى حيث

شاءت، لم يكن لها سيارة من طرازها فى تلك الأيام ، وحساباتها المفتوحة فى المتاجر تسمح لها بما تشاء من بذخ وترف . لكنها لاتشعر مع ذلك ، بالسعادة النفسية التى كانت تشعر بها من قبل . لقد كان غذاؤها المادى يومذاك أقل دسامة من الغذاء المطروح اليوم أمامها وتحت قدميها .. لكنه كان غذاء كافياً ، يجعلها تقف مع ذوات البذخ والترف على مستوى واحد . ثم كان لها غذاء آخر ، وليس لذوات البذخ والترف حظ منه . كان لها زوجها الذى يفيض عليها من عقله وقلبه نوراً ومحبة يرتفعان بها إلى سماء العاطفة . وكان لها من مجد هذا الزوج مايحيطها بجلال ، ينطفىء دون لألائه بريق الماس وتألق الجواهر ، لأنها كانت ترى فى أعين الذين ينظرون إليها ، أنها شريكة فى هذا المجد ، وصاحبة فضل فيه !

أما زوجها الثانى ، فكانت تشعر إلى جواره ، بأنه تاجر فى عواطفه ، كما أنه تاجر فى مهنته . كان يريدها دائما أن تشعر بأنه يبيعها شيئا مقابل شىء . . يبيعها رخاءها ، ورخاء ولديها ، لتبيعه حبها ووجودها . كانت الحياة فى نظره أخذاً وعطاء ، لايهب فيها أحد لأحد شيئا من نفسه ولا من قلبه دون مقابل !

لكن الأيام أقنعتها بعد قليل أنها يجب أن تذعن لحظها . فهى حامل ، وبعد أشهر ستكون شريكة شحاته فى الطفل الذى يرزقانه .

والطفل قيد ، إن يكن من ذهب ، فهو على كل حال ، قيد يربط أبويه يداً إلى يد ، وقلباً إلى قلب ، لتنصبّ كل عواطفهما على هذا الصغير البرىء . والأم أحرص على هذا القيد الذهبي ، تسخّر به الأب لولدها . والجنين الذى تحمله رجاء فى أحشائها يفاديها من كِنه ، لتسكت كل حفيظة على زوجها ، من أجل هذه العلقة التى تتكون إنسانا .

لذلك كانت تبدى لزوجها التاجر ما لم تكن تبطن ، فى انتظار اليوم الذى يصبح فيه هذا الرجل المعتز بماله خادماً لطفلها ، يوم تعتز هى بمولده .

وكانت رجاء من زوجها فى موقف أشد حرجاً من موقف أى حامل غيرها . فمنذ عرفت أن عزيزاً سافر إلى العراق ، بدأت الهواجس تساورها بشأنه . إنه هجر وطنه غضباً منها ، لأنها تزوجت بعد أبيه . تُرى ما عسى تكون حاله هناك فى هذه الغربة التى فرضها على نفسه بسببها ؟ . . أهو مطمئن لأنه يتناول ببغداد مرتباً مضاعفاً ؟ . . أم يعذبه الحنين إلى وطنه والشوق لإخوته ؟ . أم أنه نسى الوطن والإخوة والأم ، وأغرق همه فى بحر من اللهو والشراب ، أو فى أحضان فاجرة تعبث به ، ولا ترعى فى شبابه إلاًّ ولا ذمة ؟ . . وهل تراه يجيبها إذا كتبت له حتى تطمئن على أحواله ؟ . .

ألا فيله ما شاء ، وليعبث ما طاب له العبث ، على أن يكون فى صحة وطمأنينة !

وتعاقبت الأشهر ، وأنجبت رجاء بنتا ،ظريفة ظرفها ، رقيقة رقتها . فملكت بها قلب شحاته ، أكثر مما ملكته بنفسها وحواسها . فقد كان الرجل مشوقا إلى بنت تكون أختا لابنه من زوجه الأول ، تؤنس رقتها ويؤنس شبابها شيخوخته وكهولة أمها !

واغتبطت رجاء بهذه البنت ، وإن لم يعزها مولدها عن إصرار عزيز على ألا يبعث إليها بكلمة ، رداً على الخطابات التى بعثت بها إليه . وقد ظل عزيز على إصراره ، حتى يئست رجاء منه ، فأمسكت عن الكتابة إليه ، مكتفية بأن تسأل من يقدم من بغداد عن أخباره وأحواله !

وتعاقبت السنون ، وأتم أخو عزيز الأصغر دراسته الثانوية ، وآن له أن يلتحق بالجامعة ، وكان يود أن يسلك طريق أبيه وأخيه ، وأن يدرس الآداب ، حتى لا تنسى الكلية ذلك الأب الذى افتخر بها وافتخرت به .

لكن شحاته كان له رأى آخر . كان يرى أن يقف الفتى عند المرحلة التى بلغها ، وأن يعمل معه فى التجارة . وكانت حجته أن الحياة العملية أقوى أثراً فى تكوين الشخصية من الدراسة النظرية .

لـكن رجاء أبت رأى زوجها كل الإباء . فألح شحاتة فى أن يلتحق الفتى بكلية التجارة ، لأن التجارة تنبت الذهب من الحجارة ، كسبها وفير ، ورزقها حلال . وما قيمة المجد وقد فارق الدنيا والد الفتى وليست له تركة تذكر ؟ . لقد كانت مأساة وشحاتة حريص على ألا تـكرر هذه المأساة !

ولم تستطع رجاء معارضة زوجها فى هذا الرأى ، وهى تعيش مع ولديها فى كنفه . لهذا التحق الفتى بكلية التجارة . ومكنه ذكاؤه من التفوق فيها .

وكما فـكر شحاتة فى أن يتجه أخو عزيز الأصغر إلى التجارة ، احتياطا للمستقبل ، كذلك فـكر فى تزوج ابنه من زوجته الأولى ، ابنة رجاء ، ليكفل للأسرة كلها مستقبل رفاهية ورخاء .

وبعد سنوات انتهت مدة الانتداب التى سمح بها لعزيز فى العراق ، فدعته جامعة القاهرة ليعود إلى منصبه فيها . وكان عزيز مشوقا للعودة إلى مصر ، مصرًّا مع ذلك على ألا يرى أمه ما عاش . لقد رقى فى وظيفته ، واقتصد من مرتبه المضاعف فى العراق ما يسمح له بالعيش الـكريم فى القاهرة . ثم إنه كان مصرًّا على أن يحصل على الدرجات العلمية التى حصل عليها أبوه من قبل ، والتى تؤهل

صاحبها إلى منصب الأستاذية والعمادة . ولا يتأتى له ذلك مع بقائه فى العراق .

عاد إلى القاهرة ، ونزل بها فندقا ، لا يكلفه نفقة طائلة ، وبدأ يضطلع بعمله فى كلية الآداب . وعرفت أمه عودته ، فبعثت إليه أخاه يدعوه لمقابلتها . وتلطف أخوه فى الحديث معه ، وذكر له تقدمه فى كلية التجارة ، وأفضى إليه برسالة أمة ، وبشدة شوقها للقياه .

قال عزيز متهكما : « أتراها تريدنى أن أذهب إليها فى بيت السيد شحاتة ؟ ! . . كلا يا أخى ! . عد إليها فأبلغها أننى ما أزال عند رأيى الذى أنهيته إليها يوم رأتنى لآخر مرة » .

قال أخوه : « لقد قدرت والدتى أنك لا ترضى أن تجىء إلى بيتنا ، وهى لذلك حريصة على أن تلقاك حيث شئت . ولا بأس بأن تجىء إليك فى هذا الفندق » .

قال عزيز : « أبلغها يا أخى ، أن هذا المكان لا يليق باستقبالها واستقبال سيارتها الفخمة ، وأنا ـ على أية حال ـ على العهد الذى قطعته لها ألا أراها وقد تزوجت بعد أبى ! » .

وعبثا حاول الفتى أن يحمل أخاه على العدول عن رأيه ، فهو مصر عليه كل الإصرار ، ولا سبيل إلى تحويله عنه . فلما يئس منه أخوه ، وهم بالانصراف ، أمسكه عزيز من ذراعه وسأله :

— كيف حال أختك ؟ ألم يتقدم لها خاطب ليتزوجها ؟

وتلعثم الفتى حين سمع هذا السؤال ، وبدا عليه الاضطراب ، ثم لم يجد بدًّا من أن يفضى لعزيز بأنهم يتكلمون فى زواج أخته من ابن السيد شحاته . عند ذلك ثار ثائر عزيز ، وصاح بأخيه :

— تتزوج من ابن السيد شحاته ، ولا تبدى أنت اعتراضا ؟ . أكذلك أصبحت أنت كما أصبحت أمك منهم ، ولم تبق ابن أبيك ؟ ألا أبلغ أمك أن هذا الزواج لن يكون ، فأنا ولىّ أختى شرعا ، ولن تتزوج بغير موافقتى !

وعاد الفتى إلى أمه وقصّ عليها ما دار بينه وبين أخيه ، فاضطربت ، بل كادت تصعق . إنها كانت ترجو أن تضم الأسرتين وتجعل منهما أسرة واحدة . فإذا اختاره الله إليه كانت أما لهذه الأسرة كلها ، وعاشت ما بقى من حياتها فى طمأنينة ونعمة . وهـذا عزيز يريد أن يفسد عليها كل تدبيرها ، وكانت تحسبه بالغاً غاية الإحكام. فما عساها أن تفعل ؟ وأى موقف تقفه من ابنها الأكبر ، وقد وضعها بينه وبين زوجها وضعاً لا تحسد عليه ؟ ..

وقضت الليل بطوله تقلب الأمر على وجوهه ، فلما أصبحت ذكرت لشحاتة أن قلبها لا يطاوعها على ألا ترى عزيزاً .

قال زوجها : « ذلك شأنك فاصنعى ما تشائين ، ولا اعتراض

لى على أن تلاقيه حيث شئت أو حيث شاء ، إذا هو سمح بلقائك . أما أنا فلا سلطان لى عليه » .

هنالك انفجرت رجاء باكية وقالت :

« ولـكنه بعث يهدد بالوقوف فى سبيل تزويج ابنتى من ابنك ، بحجة أنه وليها الشرعى ، ولابد من موافقته على هذا الزواج » .

وصدمت هذه العبارة شحاتة فقال : « هـذا كلام أطفال ، ويجب أن نتم عقد القران بأسرع ما نستطيع » .

وازدادت رجاء اضطراباً لما سمعت . وانصرف شحاتة إلى عمله . وإنهم لفى صبح الغد من ذلك اليوم ، إذ حمل المحضر إليها إنذاراً من عزيز ، بأنه يعارض تزويج أختـه من ابن شحاته بوصفه وليها الشرعى ، ويبنى اعتراضه على عـدم الـكفاءة بين الفتاة وخطيبها . فالجاهل ابن الجاهل لا يكون كفؤاً لابنة عالم عظيم !

* * *

لم يكن ذلك الإنذار ورقة تهمل ، بل كان إيذاناً بحرب شعواء ، بين عزيز وأمه وزوجها . وعرف شحاتة هذا الإنذار ، حين رجع لموعد الغداء ، فاستشاط غضباً وقال :

— لابد أن يتم عقد القران هذا الأسبوع .

فلما رجع إلى عمله ، بعد أن استراح من غذائه ، لم تطق رجاء صبراً ، فأخذت سيارة أجرة ، وذهبت إلى مسكن ولدها ، ودخلت عليه غرفته ، فلما رآها تراجع مأخوذاً بلقاء لم يكن يتوقعه . وأسرعت إليه أمه ، فألقت بنفسها عليه ، وأخذت تقبله ، وقد كست دموعها وجهها ، وهى تقول :

وترفض أن ترانى أنا يا عزيز ؟ ! ترفض أن ترى أمك ؟ ! إن أكن قد أخطأت فإنى أستميحك العفو والمغفرة ، نعم يا ولدى . هبنى عفوك ومغفرتك . إنك لا تعلم كم تألمت لسكوتك عن الرد على خطاباتى إليك بالعراق ، وكنت أرجو يوم تعود أن ألقاك ، وأن نتفاهم ، أما وأنت مصرٌّ على موقفك منى ، فأنا عندما تريد . ألقيت إليك مقاليد أمرى ، ووضعت بين يديك مصيرنا جميعاً . فاحكم فينا ، فأنت منا مكان أبيك !

سمع عزيز هذا الكلام ، فبلغ منه التأثر غاية مداه . فأقبل على أمه يقبل يديها ، ويقول لها :

— بل أنا الذى أستغفرك يا أماه ! . ولكنى لن أرضى أن تتزوج شقيقتى من هذا الشاب طمعاً فى ثروة أبيه ، فاسم أبينا أكرم من كل ثروة ، وأنا لا أطيق أن أسمع اسم السيد شحاتة ، وهو الذى

غصبك منى ، فأدى ذلك بى إلى أن نفيت نفسى من وطنى كل هذه السنين !

وألقت رجاء ببصرها إلى الأرض حين سمعت هـذا الـكلام ، ثم قالت : « ولـكن لى منه بنتاً هى أختك ؟ ! »

قال عزيز : « ذلك ما يزيدنى ضغناً عليه ، وكراهية له ! »

لم ترد رجاء أن تتابع هذا الحديث ، بعد أن شعرت بأن عزيزاً أخذ يعود إليها ، ويصغى قلبه إلى أمومتها . فجعلت تسأله عن العراق ، وعن حياته فيه . وطال حديثهما ، وسرقهما الوقت ، فإذا المساء يقبل ، وإذا رجاء لا تستطيع مع ذلك أن تغادر مجلسها بجانب ولدها . وإنهما لـكذلك ، إذ فتح الباب ودخل شحاتة ، وعيناه تقدحان الشرر . لقد أذن لزوجته أن ترى ابنها قبل أن يوجه إليهم هذا الإنذار المهين له . أما وقد وجهه ، فزيارتها إياه اشتراك منها مع ابنهـا فى إهانته . فإن رأت أن ترجع إلى بيته ، فلتقم معه لفورها ، على ألا ترى عزيزاً من بعد أبداً !

وقع هذا الـكلام على الأم وقع الصاعقة ، فاضطربت نظراتها بين زوجها وابنها ، ثم ارتمت بينهما وهى تقول :

رحمة بى أنا الأم البائسة المسكينة ! عزيز ابنى ، وابنتك الطفلة البريئة الصغيرة ابنتى .. أنا أمهما جميعاً . رفقاً بى ! حرام عليكما تعذيبى !

لـكن غضب شحاتة لم يكن يعرف حداً . لقد بدأ هذا الغضب فى نفسه منذ عاد إلى بيته فلم يجد به زوجته ، وأيقن أنها ذهبت إلى ابنها فى مسكنه . ثم استمر هذا الغضب ينمو ويزداد ويتفاقم حتى ملك عليه كل صوابه . لذلك صاح برجاء :

ـ اختارى بينى وبين ابنك هذا ؟ !

قالت رجاء بصوت خنقه البكاء :

ـ لا خيار لى ! . والموت أحب إلىَّ من هذا الخيار !

ازداد بشحاتة الغضب حين سمع منها هـــذا القول ، فتقدم نحوها يصيح :

ـ انهضى أيتها الحمقاء ! . أتعقدين بينى وبين هذا الشاب أية مقارنة ؟ .

أتحسبينه قديراً على أن يطعمك ويكسوك ، إذا لم تـكونى فى كنفى ؟. قومى . اختارى : أنا ؟ أم هو ؟

ونظر عزيز إليه محنقاً وقد صعد الدم إلى رأسه ، ثم اندفع نحوه ملوحاً بقبضة يده ، وكأنما يريد أن يضربه وهو يقول : «أتحسب أنك اشتريتها بمالك الدنس ؟ ! »

وامتقع لون شحاتة لصنيع عزيز ، وبلغ منه الانفعال غايته ، فوقف هنيهة ، ثم ارتد على عقبيه ، وهو يهمهم بين أسنانه :

اللهم اخز الشيطان !

فلما بلغ الباب ، ارتد ببصره إلى زوجته وقال :

ـ قومى الآن إلى بيتك ، وإلا فهو عليك حرام !

ونظرت رجاء إلى عزيز متخاذلة ، وقامت تتبع زوجها وهي تقول : « إلى اللقاء يا بنى ! »

وأجابها عزيز : « وداعاً يا أماه ! »

وأردفت هى تقول : « بل إلى اللقاء ! » .

وقضى شحاتة ليلة نابغية ، هدَّه التفكير أثناءها ، ولم يهده إلى شيء يواجه به ما حدث . وأصبح متعباً غير قادر على الذهاب إلى متجره . فلما أمسى كانت الحمى قد ركبته ، ثم شعر بألم جاء فى الناحية اليسرى من صدره ومن كتفه ، واستدعى طبيبهم الخاص ، ففحص هذا الشيخ الهرم ، وأدى به الفحص إلى تشخيص نوبة قلبية مفاجئة ، قد لا تبلغ حد الخطر على حياة المريض إذا لزم الراحة التامة المطلقة ، وإذا لم يتأثر المخ بالانفعالات العنيفة التى مر الرجل بها .

واستدعت رجاء أطباء القلب لمعاونة طبيبهم الخاص ، فأبدوا من العناية بالمريض مالا مزيد عليه ، وكانوا يترددون عليه كل يوم غير مرة لعيادته .

لـكن لـكل أجل كتابا ، فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون. وبعد أربعة أيام من الحديث العنيف ، الذى جرى بين عزيز وأمه وزوجها ، أسلم شحاته روحه ، برغم عناية الطب ، وعناية زوجه وابنه وشيعت جنازته ، وأقيم مأتمه بما يتفق مع واسع ثروته .

وحسم موته ما فرضه على رجاء من الاختيار بينه وبين ابنها ، فالتقيا على قبره وكفل نصيبها ونصيب ابنتها الصغرى فى الميراث ، للأسرة كلها ، عيشاً كريماً .

وتولى ابن شحاته إدارة التجارة لحسابهم جميعاً ، وإن أصر عزيز على ألا يزوجه شقيقته !

الدين والوطن

كانت رقيقة غاية الرقة ، ذكية غاية الذكاء ، أكثر اعتزازاً بذكائها منها بجمال يلفت النظر ، ورثت من أمهـا الشركسية بياضاً وصفاء لبشرتها ،ومن أبيها الصريح فى مصريته جاذبية قوية فى نظراتها باسمة الثغر ، معتدلة القوام ، لولا ذكاؤها النفاذ ، الذى يسمو بها فوق كل اعتبار سواه ، لـكان لها أن تتيه ما شاءت بجمالها .

وقد تفوقت « سمية » على زميلاتها فى الجامعة ، تفوقاً أدى إلى اختيارها حين حصلت على درجتها الجامعية ، لتتم علومها بباريس . وذهبت إلى العاصمة الفرنسية ، والتحقت بالسوربون لتحصل على الدكتوراه . وقد أتاح لها ذكاؤها أن تتابع فى معاهد الدراسات العليا العديدة ، التى يفخر بها حى باريس اللاتينى ، محاضرات مختلفة فى الفن والأدب ، جعلت من ثقافتها العامة عالماً فسيحاً ، وصقلت منطقها وتفـكيرها ، فإذا تحدثت سعد المستمعون اليها بأعذب متاع وأدسمه .

وكانت الجمعية الإسلامية فى باريس تجتمع مساء الجمعة من كل أسبوع ، فى بهو من أبهاء الجمعية العامة للطلاب ، وكان يحضر هذه

الاجتماعات شبان مسلمون من كل الجنسيات . كان يحضرها أبناء البلاد العربية ، ويحضرها التركى والإيرانى والروسى والهندى والصينى وغيرهم من شبان العالم الاسلامى ، المنتشرين فى أرجاء الأرض المختلفة ولم يكن يحضر هذه الإجتماعات من الفتيات إلا قليلات ، كن يترددن عليها أحيانا ، وينقطعن عنها أحيانا . خلا « سمية » فقد كانت حريصة على أن تشهد الاجتماعات كلها ، وكانت — على خلاف زميلاتها — لا تأبى أن تشترك فى مناقشات الجمعية ، مؤمنة بأن هؤلاء الشبان الذين يحضرون جلساتها سيكون لهم فى نهضة العالم الإسلامى عما قليل أثر أبلغ الأثر .

وكان من هؤلاء الشبان متحمسون بالفعل للعالم الإسلامى ونهضته أشد التحمس ، فكانوا يثيرون فى مناقشاتهم أحداثه ، ويعلقون على هذه الأحداث ، ويتخذون فى بعض الأحيان قرارات يبلغونها لدولة أو أكثر من دولة ، أو يحتفظون بها لأنفسهم ، ويعتبرونها عهدا مقطوعا على كل واحد منهم أن يحققه فى المستقبل .

كان « سليم سولوكوف » من أكثر أعضاء الجمعية الإسلامية تبريزاً بين إخوانه . وكان شابا روسياً ، من « جورجيا » . وسيم الطلعة ، أسود الشعر ، نحيفاً ، قوى الصوت فى انزان ، رضى الخلق

محبباً بذلك إلى كل إخوانه وقد اختاره زملاؤه رئيساً للجمعية، فاعتذر لهم شاكراً حسن ثقتهم، لأن مشاغله فى دراساته تحول دون قيامه بأعباء الرياسة على الوجه الذى يطمئن له ضميره. وقد كان إذا تكلم عن الإسلام والمسلمين سما بتفكيره فوق المألوف من كلام سائر الأعضاء، فأصغى الكل له فى إعجاب وإكبار، وأفضى بعضهم إلى بعض بأن هذا الشاب النابه سيكون له فى المستقبل شأن عظيم.

وكانت «سمية» من أشد المعجبين بسليم، وكان هو شديد الإعجاب بها وأدى تبادلهما الإعجاب إلى تقاربهما، ثم إلى صداقتهما. وكانا كثيراً ما يتحدثان عن العالم الإسلامى، الناهض فى ذلك الحين إلى الحرية وإلى الكرامة، ليمحو ما فرضه السلطان الأجنبى عليه من مذلة قروناً عدة، فكانت آراؤهما تلتقى عند آمال يسعد بها هذا العالم، ويطمئن لها الدين القيم.

ومرض «سليم» فانقطعت «سمية» لتمريضه. تركت محاضراتها فى السوربون، وفى المعاهد الأخرى التى كانت تتردد عليها، وجعلت تقضى نهارها إلى جانبه، فإذا أظلم الليل، تركته إلى عناية صاحبة «البنسيون» الذى يقيم به، بعد أن توصيها فى لهجة كلها الحنان والإشفاق، أن ترعاه إلى حين عودتها فى الصباح، فلما أبلّ الشاب من مرضه، كانت عنايتها به قد وثقت ما بينهما من مودة، ونقلت

هذه المودة خطوات إلى ناحية العاطفة الإنسانية السامية . . عاطفة الحب !

وإنهما ليسيران يوما فى حديقة « اللوكسمبورج » إذ قال لها :

— اسمعى ياسمية . إننى أشعر بعد عنايتك بى أثناء مرضى أننى مدين لك بحياتى . فهل ترين ما يمنع من أن أجعل هذه الحياة فى خدمتك إلى نهايتها ، وذلك بأن نتزوج ؟ .

وألقت الفتاة ببصرها إلى الأرض ولم تجب ، فأردف :

— أرجو أن تفكرى فى الأمر ، وسأعود إلى الحديث معك عنه .

كان ذلك فى آخر السنة الأولى ، من سنى الحرب العالمية الثانية ، وكانت باريس قد أصبحت فى سلطان الألمان ، فكانت المراسلة بين مصر وفرنسا المحتلة منقطعة أو تكاد . فلم يكن يسيرا أن تراسل « سمية » أهلها لتستشيرهم فيما يعرضه « سليم » عليها . وأبى عليها ذكاؤها وكبرياؤها أن تخاطب أحداً من زملائها أو زميلاتها المصريين فى أمر يعنيها ولا يعنى غيرها . فقضت ليلها تفكر فى عبارة سليم ، الوجيزة ، ثم ذكرت أول ما ذكرت ، عهداً قطعته لأمها عشية سفرها من مصر ، ألا تتزوج من أجنبى .

أو تستطيع وقد قطعت هذا العهد على نفسها أن تقبل خطبة

سليم إياها ؟ إنها تحبه كما يحبها ، وتشعر بأنها ستنعم فى هذا الزواج بسعادة لا ترجوها فى زواج غيره . . . لـكنها حريصة على الوفاء بعهد قطعته لأعز الناس عليها وأحبهم إليها . . لأمها . فهل من سبيل إلى التحلل من هذا العهد ؟ ألا لو أنها وجدت الوسيلة لذلك لما ترددت فى الزواج من سليم ! .

وإنها لحيرى أمام هذا العهد المقدس ، إذ سمعت صوت نفسها ينفاديها :

— لـكن سليماً ليس أجنبياً ، إنه مسلم وأنا مسلمة ، والدين يربط بيننا بوثاق لا يقل عن وثاق الوطن قوة . بل الدين هو وطننا الأكبر ، وطننا الأقدس ، وهو الرابطة السامية فوق كل رابطة . أليس بجيز الشرع أن أتزوج مسلماً ، أيا كان البلد الذى يعيش فيه ، ويحرم علىّ أن أتزوج غير مسلم من أبناء الوطن الذى ترتسم حوله حدود أرض ! فإذا أنا تزوجت سليما فلن أكون قد نقضت العهد الذى قطعته لأمى أو نـكثت به ، ولذلك لن تغضب هى يوم تعلم بهذا الزواج ! .

وتردد صوت نفسها فى أعماق وجودها واستجابت له روحها ، لـكن ذكاءها المتوقد حرص على أن يقيم لهذا الصوت منطقاً عقلياً ،

حتى لاتتهم بأن تيار العاطفة جرفها ، فالتمست فى نداء نفسها وسيلة تحلها من عهدها ! .

ولم يعىَ ذكاؤها عن الاستجابة إلى نداء عاطفتها ، فأرسى منطق هذا النداء على قواعد اطمأن لها وجدانها .

لقد كانت تشعر إذ كانت بمصر أنها أقرب إلى أهل دينها منها إلى غيرهم من أبناء وطنها ، إلا ما ندر . وقد زارت الشام سنة مع أبيها ، فشعرت نحو أهله المسلمين بالمودة والقربى ، لأن دينهم ولغتهم لغتها .

ودين سليم دينها ، وهو يتكلم الفرنسية كما تتكلمها ، فلهما لغة مشتركة ودين واحد . ولا ريب أن سليما يشعر نحو المسلمين الروس بما تشعر هى به نحو المسلمين المصريين ، ويشعر نحو المسلمين غير الروس بمثل ما شعرت به نحو أهل الشام ، فله إذن وطن أكبر ، كما أن لها وطناً أكبر . وهذا الوطن مشترك بينهما فليس أيهما إذن أجنبياً عن صاحبه ، ولن تكون بقبولها الزواج منه قد نكثت بعهدها أو أخلت به !

جعلت سمية تقلب هذه الحجج فى دخيلة نفسها طول ليلها ، فجفاها النوم إلى مطلع الفجر . وفى الظهيرة التقى بها سليم فى المطعم الذى يتناولان الغداء فيه ، فنظر إليها بعين فيها الاستفهام ، كأنما يريد

أن يعرف رأيها فيما عرضه عليها ، وأمسكت هى عن الجواب ، فصرف الحديث إلى موضوع آخر .

وتحدث إليها صبح الغد بالتليفون ، ليلتقيا فى حديقة اللوكسمورج . فلما تقابلا وبادلته التحية ، لم يمهلها أن قال لها :

— لقد قضيت الليلتين الماضيتين لاأذوق طعم النوم فى انتظار جوابك ، فهل أطمع فى أن أسمعه اليوم ؟

وأجابته : « لقد كان شأنى مع النوم شأنك . . والآن أنت وما تريد . ولندع الله أن يسعدنا بهذا الزواج ! »

وتزوجا . وبعد سنتين أنجبا غلاما ، ولم يمنع ذلك سمية من متابعة دراستها والحصول على الدكتوراه التى التحقت بالسوربون لتحصل عليها . ووضعت الحرب بعد ذلك أوزارها ، واستعادت فرنسا حريتها ، وعادت المراسلات بين مصر وباريس ، وكتبت سمية إلى أمها تزف إليها البشرى بنجاحها ، وتخبرها كذلك بزواجها ، وبالغلام الذى رزقها الله ثمرة لهذا الزواج .

وكررت سمية فى خطابها مرات عدة أن زوجها مسلم من آباء وأجداد مسلمين ، وأن الإسلام وطن المؤمنين به جميعا ، وأن ذلك هو الذى أقنعها بالزواج منه ، بعد الذى رأته من كمال صفاته ، واستيقنته من كريم حسبه !

مع ذلك ربع أبواها لنبأ زواجها ، فلم ينبئا به أحدا ، وبلغ من روع أمها أن قدرت أنها فقدت سمية إلى الأبد ، ولولا مخافتها أن يفتضح الأمر — وهى حريصة على إخفائه — للبست السواد على هذه البنت ، كما لبسته على أخت لهـــا ماتت من قبل ودفنت فى صحراء القاهرة !

وكتبت الأم إلى سمية كتابا قاسياً ، ذكرتها فيه بالعهد الذى نـكثته ، وبالعار الذى جلبته على أهلها ، وذكرت لهـا أنها لم تعد ابنتها ، وأنها لا تريد قط أن تراها ، وأن قلبها ، قلب الأم ، ساخط عليها وعلى فعلتها النـكراء .

ولم تخف سميـة عن زوجها غضب أمها فقال سليم : « فلنذهب إلى روسيا ، وستجدين فى بلادى وبين أهـــلى ما يهوّن عليك غضب أهلك » .

قالت : « أو تراك تريد أن نترك ما نستمتع به من حرية فى باريس ، لنعيش فى جو من الإرهاب الشيوعى ، لايعرف الإنسان فيـه ما مصيره إذا أبدى رأياً لايعجب الحاكمين ! كلا يا صديقى ! إن شئت أنت فاذهب إلى أهلك ، ودعنى هنا مع ولدى ، فإنى أوثر الحرية ولا أرضى بهـــا بديلا ! وكيف تحسب أهلك يستطيعون أن

يهونوا علىّ غضب أهلى ، وهم لايعرفون لغتى ، وأنا لاأعرف لغتهم . ولا أخالنى قادرة فى هذه السن على أن أتعلمها ؟!

والحق أن سليما لم يكن يؤمن بالشيوعية ، وكان يرى فيها الكثير مما يخالف الإسلام دينا ونظاما . وهو لم ينس أن ابن عم له حوكم منذ بضع سنوات وحكم عليه بالنفى ، لغير شىء إلا اتهامه بأنه لايتلاءم مع العهد . لكن مرتب سمية المدرسى كان قد قطع لأول ما انتهت الحرب وعرفت الحكومة أنها تزوجت من غير مصرى . وهى لم تكن تطمع فى معونة من أهلها ، وقد أغضبهم تصرفها ، ولم يكن مايتناوله سليم من أهله ، يكفيهم للعيش فى باريس ، عيشا معقولا . وليس من السهل أن يجد هو ، أو تجد هى ، عملا كريما فى فرنسا ، برغم درجاتها العلمية العليا ، لأن أبناء فرنسا كانوا بحاجة — بعد السنوات الخمس التى احتل الألمان وطنهم فى أثنائها — إلى كل عمل فيها ، وكل وظيفة من وظائف الشركات أو الأعمال الحرة ، التى بدأت نشاطها أو عادت إليه . فكيف السبيل مع ذلك كله إلى البقاء فى باريس ، ومواجهة هذه الظروف جميعا ؟

تحدث سليم مع زوجه فى هذا الوضع ، وذكر لها أنها بين أن يذهبا إلى روسيا ، أو أن يعيشا فى باريس عيش الشظف . فإذا ذهبا

إلى روسيا ، فيسير أن يجد عملا يرزقهما . ولعلها متى تعلمت الروسية أن تجد عملا كذلك بعد أن أصبحت روسية الجنسية بحكم زواجها . صحيح أن العيش فى روسيا لايجعلهما أنعم بالا من الفرنسيين فى فرنسا بسبب ما أدت إليه الحرب من حرمان ، لـكنهما ، وهما من الأجانب فى فرنسا ، سيلقيان فيها عنتا أشد العنت ومشقة أية مشقة !

واستمهلته سميـة إلى الغد لتفـكر فى الأمر ، فلما أصبحت خرجت لبعض شأنها وفى المساء قصت عليه أنها بحثت فوفقت إلى عمل على الآلة الـكاتبة ، متواضع الأجر ، ولـكنه يعينهما على تحمل أعباء المعيشة . عند ذلك رأى أن لا مناص له من أن يبحث كذلك عن عمل يضم أجره إلى مايتناوله من أهله . ولعل مجموع مايصل إليهما ، ينجيهما من الضيق ، وإن لم يسمح لهما بأية رفاهيـة . وحسبهما عزاء أن أهـل باريس جميعاً يعانون الحرمان فى تلك الأيام التى أعقبت الحرب ، فلن يكون مظهرهما أسوأ من مظهر الفرنسيين أنفسهم .

واهتدى سليم ، كما اهتدت سميه ، إلى عمل . فاستطاعا أن يعيشا فى شظف ، وتحيط بهما مع ذلك سعادة الطمأنينة إلى الحرية .

* *

كانا يذهبان فى الصباح إلى عملهما بعد أن تستودع الأم طفلها مؤسسة ترعاه مع أمثاله . فإذا كان المساء ، وعادا من عملهما ، وعادت هى بالطفل معها ، وجاءا بطعام عشائهما ، آوى الجميع إلى غرفتهم حتى ينام الغلام . ثم خرج الزوجان يقضيان وقتاً ناعماً سعيداً يستمعان إلى الموسيقى فى أحد المقاهى ، أو فى ملهى من الملاهى التى تعزف الموسيقى فيها أبدع الألحان لأكبر أساتذة الفن . أو يذهبان إلى مسرح فى أعلى التياترو ، أو يسيران فى شوارع باريس الكبرى ، ينعمان بمناظر المعروضات فى واجهاتها . فإذا انتصف الليل أو كاد . ارتدا إلى غرفتهما سعيدين بأن يريا فيها الطفل مستغرقا فى نوم هادىء . ثم يأويان إلى فراشهما ينعمان فيه بسكينة النوم .

وكانت هذه الغرفة هى وطنهما الصغير المحبب . كانت سمية تغمض عينيها فترى فيها مصر كلها ، لأنها كانت تجمع حولها كل ما فى الحياة من حب وإعزاز كحبها سليما وحب سليم إياها ؟ ! وهل إعزاز كإعزازها هذا الطفل البرىء الجميل ؟ .. هو ـ لها بسمة الحياة ، وهو الذى يهون عليها كل مشقة . وإذا كانت أمها قد غضبت منهـا ، فتنكرت مصر لها ، فلن يجعلها ذلك أقل لهذا الوطن الكريم إعزازا أو محبة . ولن يؤئسها ذلك من أن ترضى عنها أمها ، يوم تؤمن بأنها

لم تجن ذنباً ، ولم تنكث عهدا ، حين آمنت بأن الدين هو الوطن الأكبر ، وأن الأرض التى ولدت فيها هى الوطن الأصغر !

وكانت سمية تنتهز صبح يوم الأحد من كل أسبوع لتكتب إلى أبويها قبل أن تخرج مع زوجها واينها لقضاء النهار فى نزهة خارج المدينة . ولم تكن تنتظر من أبويها ردًّا على كتبها ، ولكنها كانت ترجو أن تلين هذه الكتب قلبيهما فيصفحا آخر الأمر عنها .

والعجيب أن أباها كانت تنازعه نفسه إلى هذا الصفح ، وأن أمها هى التى كانت تأبى أن تقرأ كتب ابنتها ، أو أن تجارى زوجها فيما كانت تسميه تساهله وضعفه . ولو أن الأم قرأت كتب سمية ، أو سمعت إلى مافيها ، لتأثرت بها كما تأثر الأب ، ولانت كما لان ، لكن إباءها كان يشوبه عناد عنيف ، يبعثه إلى نفسها خوفها من أن تضعف هى الأخرى أو أن تلين !

وإنها لتجلس ذات صباح فى غرفتها ، إذ دخل عليها زوجها ، ودفع إليها صورة فوتوغرافية ، نظرت فيها فإذا هى صورة طفل ، كل نظراته البراءة والذكاء ، وفيه منها شبه حتى لكأنها هى التى ولدته . ونظرت طويلا إلى الصورة وأدركت أن الطفل هو ابن سمية . فترقرقت فى عينيها دمعة لم تستطع حبسها ، ثم قالت :

— وما ذنب هذا الطفل البرىء الجميل ؟ . إننى أشعر له فى أعماق قلبى بمحبة تعدل غضبى من أمه . ألا ليتنى أراه !

وسكت زوجها برهة ثم قال :

« وليتنى أنا كذلك أراه » . ولم يزد على ذلك ، ولم يخاطبها فى الموضوع طول ذلك النهار .

فلما أمسيا ، قالت له . « ألا ترينى خطاب سمية الذى أرفقت به صورة طفلها ؟ »

وأعطاها زوجها الخطاب ، وقد اطمأن إلى أن أمومتها بدأت تتغلب على كبريائها . فلما كان بعد ذلك بأيام ، قالت له :

— مارأيك فى أن نذهب إلى باريس نقضى بها أياماً ، نرى فيها حفيدنا ، ونغير هذا الجو المحيط بنا ؟

وأجابها : « وما رأيك أنت فى أن نبعث إليهم بتذاكر السفر ليحضروا إلينا ؟ .. ولعلنا نستطيع أن نستبقيهم بمصر ، فيظل الطفل فى أحضان عطفك وحنانك ؟ »

ولم تجد الأم ماتعترض به هذه الفكرة ، فأرسل الأب إلى ابنته يقول لها إنه وضع تحت تصرفها وتصرف زوجها تذاكر سفر من باريس إلى مصر ، وإنه ترك لها تحديد الموعد الذى يحضران فيه .

وعرضت سمية ما كتبه أبوها على سليم ، واتفقا على أن يطلب كل منهما إجازة من عمله ، ليذهبا مع طفلهما إلى مصر . وكان كل منهما قد اطمأن إلى ثقة أرباب العمل فيه ، ثقة أتاحت لهما أن ينالا إجازة شهر بمرتب .

وسافرا إلى مصر ، وتلقاهما أبوها على الميناء ، إلى منزلهم . فلما رأت أمها ألقت بنفسها بين أحضانها والدمع فى عينها ، وكأنها طفلة فى سن ولدها . وبكت الأم كما بكت ابنتها ، وعانقتها عناقا طويلا . ووقف الطفل ينظر إليهما دهشاً . فلما فرغا من عناقهما ومن قبلاتهما ، أخذت الجدة حفيدها إلى صدرها ، وأخذت تقبل جبينه وخديه ، ثم تضمه من جديد إلى صدرها .

وقد نسيت غضبها ، وغلبت عاطفة الأمومة فيها كل عاطفة سواها ، وشعرت بسعادة لاسعادة مثلها للقاء ابنتها وحفيدها .

وأقبل الأب ومعه سليم ، فقدمته سمية إلى أمها . وعاش الزوجان وطفلهما فى بيت جديه أكرم عيش وأهنأه . وكان الطفل أوفرهم من المحبة والإعزاز نصيباً . كانت جدته لاتلبث كلما رأته أن تأخذه إلى صدرها ، وأن توسعه تقبيلا ، وكأنما تكاد أن تأكله ! . وكان جده يصطحبه إلى حوانيت لعب الأطفال يبتاع له منها كل ماتشتهيه نفسه .

وكان الأبوان الشابان يريان ذلك كله فيغتبطان به ، ويبدو عليهما — مع ذلك — وكأنما يتساءلان :

فيم إذن كان غضبكما ؟

ويجىء الأهل والأصدقاء فيقدم سليم إليهم على أنه العريق بآبائه فى الإسلام ، وأنه زوج ابنتهما العزيز الحبيب ! .

وبعد أسبوعين من مقام سمية وزوجها بالقاهرة ، فكر الأب فى أن يجد لسليم عملا يسمح ببقائهما بمصر . فأخذ يمر به على أصدقائه أرباب الأعمال ، ممن تحتاج أعمالهم إلى كفاية الشباب ، وتطمئن إلى لغته الفرنسية . وكان أرباب الأعمال يسمعون ذلك ، فينظرون إلى الشاب نظرة فيها مظهر الحذر ، ثم يعدون بالنظر فى الأمر بعين الرعاية. وكان سليم يضيق بما يرى ويسمع من ذلك ، ولا يكاد يطيقه . وزاده ضيقاً به ، عدم إلفه جو الحياة فى مصر !

وخلا إلى زوجه ذات يوم وقال لها :

— اسمعى ياسمية . إن إجازتنا قاربت نهايتها ، ويخيل إلىّ أن أباك لن يجد لى عملا بمصر ، لتظلى أنت معه ومع أمك بها . وإنى لشاكر له عنايته بى . لكننى أشعر بأننى لا طاقة لى بالمقام هنا ، لأننى أحسب أن ما سأناله من أجر عن عملى ، سيعطى إلىّ وكأنه صدقة إكراماً

لخاطر أبيك ، كما أننى سأحس دائماً بالوحشة التى أحسست أنت بها يوم دعوتك لنذهب إلى روسيا . فإذا رأيت أنت المقام بين أهلك هنا زمناً أطول مما قضيناه ، فلا اعتراض لى . أما أنا فأريد العود إلى باريس ، لاستئناف عملى بها ، بعد الذى كسبت من ثقة أرباب العمل بى ، ثقة أطمع معها فى مركز خير من مركزى الحاضر . ويوم تهفو نفسك للحضور إلى عشنا ، ألفيتنى فى انتظارك على لظى الجمر !

ونظرت إليه سمية بعينين ملئتا عتاباً ، وقالت :

— أو تظننى أوثر عليك أحداً ، أو أوثر فى الدنيا مكاناً لست أنت فيه ؟ أنت يا سليم أهلى ووطنى ، وإذا استطعت أنت أن تبتعد عنى ، فلا طاقة لى بالبعد عنك . أو حسبت رخاء العيش هنا يغرينى إذا لم تكن أنت فى هذا الرخاء شريكى ؟ .. إن كسرة خبز نأكلها معا فى عشنا الصغير بباريس ، أحب إلىّ وأشهى عندى من أشهى الأطعمة وأفخر الموائد إذا جلست عليها من غيرك . ولن أناقشك فيما تحدثنى الآن فيه . وسأذكر لوالدى أننا عائدان لتسلم عملنا بباريس بانتهاء الإجازة التى سمح لنا بها ! .

وامتلأت عينا سليم بالدمع ، فقبلها وقال لها :

— شكراً لك ألف شكر يا عزيزتى ! لقد رددت الآن إلىّ روحى ، وقد أوشكت أن تبلغ التراقى . وقد جمع الله قلبينا فلن يفرق بيننا شىء فى الحياة !

وعاد الزوجان وطفلهما إلى باريس ، واستأنفا عملهما بها . وبعد أشهر دعا رب العمل سليما ، وقال له :

— إن لشركتنا بالأرجنتين أعمالا واسعة ، وقد رأيت أن أجزيك عن أمانتك وكفايتك ، بنقلك إلى هناك ومضاعفة مرتبك ، وأنا أعلم أن زوجتك تعمل فى مؤسسة على مقربة منا ، وطبيعى أن تصحبك ، وستتقاضى هناك من شركتنا ضعف مرتبها كذلك . وللشركة مدرسة يتعلم فيها أبناء موظفيها ، فإن راقك ما أعرضه الآن عليك ، فأبلغنى موافقتك وموافقة زوجك غداً ، لأنفذه من أول الشهر ! .

وحدّث سليم سمية فيما عرضه مدير الشركة عليه ، وهو يخشى عدم ارتياحها له ، لما يعرف من شدة حبها لباريس . وأدهشه أنها لم تتردد ، بل قالت له :

— نعم . هيا بنا إلى أمريكا الجنوبية ، إن بها أبوابا واسعة للثراء ، وليس يعنينى ذلك من أجلنا ، بل من أجل ولدنا ، ضماناً لمستقبله !.

وسافر ثلاثتهم أول الشهر، وبعد أن أقاموا بالأرجنتين عاما وبعض العام، تعرفت سمية إلى لبنانى عرض عليها الاشتراك معه فى عمل يدر أرباحا ضخمة، مع بقائهما بالشركة التى يعملان فيها . وقبل مدير الشركة أن تظل سمية فى عملها وأن ينقطع سليم لمزاولة العمل الجديد . وكذلك استطاعا فى أعوام معدودة أن يصبحا من أصحاب الثروة والإيراد الضخم !.

وكبر ولدهما ، فعهدا إليه فى عملهما الخاص بوظيفة يجنى منها ربحاً لنفسه .

وإن سمية لتعود من عملها ذات مساء ، إذ ألفت فى بيتها برقية تنبئها بأن أباها مريض اشتدت به العلة ، وأنه يريد أن يراها ، فطارت إلى مصر وبقيت إلى جانبه حتى قضى نحبه ، ثم عادت إلى زوجها وولدها ، واستأنفت نشاطها فى عملها ، وكانت بلغت به مقاماً محموداً .

وتعاقبت السنون ، ومرضت سمية يوما مرضا طال بها ، وأشفق منه زوجها على حياتها وفيما هو جالس ذات مساء إلى جانبها يواسيها قالت له :

ـــ إن لى يا سليم مشيئة أخيرة ، أحسبك لا تأباها علىّ ، إننى

أشعر بدنو الأجل . وقد هفت نفسى إلى ثرى الوطن أستقر فيه إلى جانب أبى وأمى ، فإذا اختارنى ربى فانقلنى إلى هناك ، أرقد فى صحراء القاهرة رقدة الأبد ! .

واغرورقت عين سليم بالدمع وقال لها :

— بل سيشفيك الله ياحبيبتى ، وسأجعل الطب كله فى خدمة حياتك العزيز ! .

وشفى الله سمية ، وعاد سليم معها إلى باريس يقضيان بها أيام نقاهتها ويستعيدان فيها أحلى ذكرياتهما ، تاركين ولدهما بالأرجنتين يشرف على ثروتهما .

وأعادت باريس العافية كاملة إلى سمية ، وإنهما ليسيران يوما على مقربة من مقابر « بير لاشيز » إذ قال سليم لزوجته :

— ما رأيك فى أن أشترى بين هذه المقابر قبراً فسيحاً يضم رفاتنا بعد عمر طويل ؟

فباريس وطن حبنا ومستقره ؟ .

وألقت سمية ببصرها إلى الأرض ، وبعد تفكير طويل قالت :

— إن الأرض لله يورثها من يشاء . وأنت يا سليم وطنى وروحى ، فاصنع ما بدا لك !

آباء وأبناء

أعرفها من ثلاثين سنة أو تزيد ، وقد تخطت الآن الخمسين ، ولم أكن أعرف أن لها قصة ، ولم تفكر هى يوماً فى أن تروى لى قصتها . فلما قرأت قصة « هكذا خلقت » . أقبلت علىّ يوماً تقول :

— إذا كان مثل هذا القصص يعنيك ، فمالك لاتسمع قصتى ، فإن راقتك ، فدوّنها . إننى لا أستطيع أن أكتب بنفسى كما كتبت بطلة قصتك الأخيرة . وأتمنى أن ترى ما أذكره لك جديراً بالتدوين !

قلت لها : « هاتى ماعندك ، وأنا أعدك بتدوينه على لسانك » .

قالت :

— كانت لى أخت من أبى تكبرنى بضعة أشهر ، وكان خالها شاباً رقيقاً جميل الطلعة ، يصغر أمها خمسة عشر عاماً أو نحوها . وكان له وقف تشركه فيه أخته مادام حيا ، فإذا توفى عن ورثة ذكور انتقل الوقف إلى هؤلاء الورثة وحرمت أخته من ريعه .

وأحبت أختى قريباً لأبينا ، وطمعت فى أن تتزوجه . وكان قريبنا

هذا يحبها ، ويتمنى أن يتزوجها ، لـكنه كان شاباً رقيق الحال ، قليل الموارد ، فلما خطبها إلى أبيهـا ، استمهله محتجاً بأن البنت لاتزال صغيرة السن ، ولـكنه ذكر لأمها أن رقة حال قريبه هى التى تجعله يطمع فى يدها طمعاً فى مالها !

ليس بين البنت وأمها سر كما يقولون ، فلما عرفت أختى سبب رفض أبيها خطبتها ، أحزنها ذلك حزناً بدا أثره فى صحتها ، لأنها كانت معتزة بما تناله أمها من ريع الوقف ، مقتنعة بأنها تستطيع أن تعيش منه مع قريبنا عيش سعة ، جاهلة أن هذا الوقف مآله إلى غير أمها وغيرهـا ، وأنها ستكون عبئاً على أبيها إذا أصبح لحالها وارث يحرم أمها من الاستحقاق . فإن لم يعنها أبوها يومئذ اضطرت لعيش ضنك مع قريبنا . وهذا مالم يرضه أبوها فلم يقبل الخطبة !

وأدى تردد خال أختى علينا منذ طفولتى إلى انفصال المودة بينى وبينه ، فلما انتقلت من الصبا إلى الشباب ، بدأت أشعر نحوه بعاطفة جديدة وبدأت أرى فى عينيه وهجاً دلنى على أنه يحبنى كما أحبه !

وأخذت هذه العاطفة تقوى فى نفسينا حتى صارت غراما عارما ، وحتى كنت أود ، حين أرى هذا الشاب مقبلا علينا ، لوأطير إليه وأتعلق بعنقه وأوسعه تقبيلا ، لولا الحياء الذى كان يمسكنى مكانى ، ويدفع حمرة الخجل إلى وجناتى !

وتسامع من في البيت جميعا ، بأن هذا الشاب الغنى الرقيق الجميل ، يريد أن يخطبنى إلى أبى ، فكانوا يهنئوننى سلفا ، ويرجون لى فى هذا الزواج سعادة وارفة الظل ، وبنين يضاعفون هذه السعادة !

وكانت أختى لأبى كثيرة التوعك في هذه الفترة ، وكثيراً ما كانت تلزم سريرها ، فكان والدى يكثر التردد عليها ، والتودد إليها ، ومعاملتها أرق المعاملة ، أليسوا يقولون : « أحب ولدك إليك الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يحضر ، والمريض حتى يشفى ؟ ! »

وكانت لى غرفة تجاور غرفة أختى وإنى لجالسة فى غرفتى هذه يوما ، وأختى معتكفة فى سريرها ، إذ سمعتها تقول لأبينا :

— أصحيح أن خالى سيتزوج أختى ، فإذا أنجبت منه غلاما انتقل الوقف له ، فأصبحنا نحن فقراء ، وأصبحوا هم الأغنياء ؟

وسكتت برهة ثم قالت : « أو ترضى أنت عن هذا يا أبى ؟ »

وأجابها أبوها : « اطمئنى ياعزيزتى ، لم يحصل شىء من هذا ، ولن يحصل ! »

لم أكن إلى تلك اللحظة ، أفهم شيئاً عن موضوع هذا الوقف ، وشروطه ، وكل الذى كنت أفهمه أن أبى يريد أملاكا واسعة ، وأن امرأة أبى تنفق عن سعة ، لا تعرف أمى ، ولا نعرف نحن

أبناءها ، شيئاً من مثلها . وأن هذا الخال الذى يحبنى من كل قلبه ، كما أحبه من كل قلبي ، كان يستمتع من إيراد هذه الأملاك بالنصيب الأوفى !

فلما سمعت ما قالته أختى ، وما أجابها به أبى ، أسرعت إلى والدتى ، فقصصت عليها ما سمعت . فلما فرغت من حديثى رأيتها اضطربت ، وتولاها الانزعاج ، وقالت :

— تعساً لامرأة أبيك ! . فما كانت أختك تعرف شيئاً مما قالته لأبيها ، وما كانت لتجرؤ على ذكره له لولا أن أمها دفعتها إلى ذلك وحرضتها عليه . وهذه هى الطيبة التى تتظاهر بها ، والسذاجة التى تريد أن يفهمها الناس عنها . أو لو تزوج أخوها غيرك ، ولم يتزوجك ، أيسرها ويسر أباك أن نتساوى نحن وإياهم فى الفقر ، ومع ذلك فإن هذا الخال يحبك فلا تخشى شيئاً !

وأقسم صادقة ، إننى لم أكن أفكر فى هذا المال الذى يتحدثون عنه ، ولم أفكر فيه بعد الكلام الذى سمعته من أمى ، بل كان كل تفكيرى فى هذا الشاب الوسيم الحبيب ، الذى ملك كل عواطفى ، وكل حياتى ، فكنت إذا رأيته ، تحركت بعنف فى فؤادى كل الإحساسات الرقيقة القاسية التى تعبر عنها كلمة الحب . ثم تزداد هذه الإحساسات عنفاً حين أرى فى عينيه وهج الغرام ، وفى كلماته العذبة

التى يبادلنى إياها ، ما يملأ نفسه من هيام بى ، يسمو بنا كليهما إلى أرق أجواء الهوى والنعيم !

ولست أدرى ما الذى دار بين أبوىّ من حـديث ، بعد الذى أفضيت به إلى أمى . ولست أدرى كذلك ما الذى فعله خال أختى من تلقاء نفسه ، أو بمشورة من أمى ، ولـكن الذى أدريه أنى دعيت بعد أيام من ذلك للذهاب إلى بيت خالى أنا ، وأنى كلفت حين أسأل عمن أوكل فى عقد قرانى أن أقول إنى وكلت أبى . وكذلك فعلت . وقبلتنى أمى بعد سويعة من هذا التوكيل ، وأخبرتنى أن ما حدث سرٌّ لا يجوز لى أن أبوح به لأحد ، لأن أبى وعد أختى ألا يعقد قرانى على خالها !

* * *

وكانت أختي إذ ذاك طريحة الفراش ، اشتدت بها العلة ، ولم يكن الأطباء الذين يعودونها يبدون الـكثير من التفاؤل بشفائها .

كيف عقد أبى قرانى على خال أختى وقد وعدها ألا يفعل ؟

أخبرتنى أمى من بعد أن هذا الخال العزيز ذهب إلى أبى ، وأقسم له أغلظ الأيمان ، إنه إن لم يتزوجنى تزوج امرأة من طبقات الشعب الدنيا ، فورث أبناؤها الوقف ، وحرمت أسرتنا كلها منه . أو انتظر

حتى أبلغ رشدى ، وعقد قرانى به على كره من أبى !

وخشى أبى أن ينفذ الشاب تهديده الأول ، فيخرج الوقف من يده بأن يعزله خال أختى من إدارته ، وأن تحرم زوج أبى ، ويحرم أبى ، مما ينالانه من هذا الإيراد الوفير . ونزل أبى على إرادة الخال العزيز ، على شريطة ألا تعلم امرأة أبى ، أو تعلم ابنتها ، بما يتم من ذلك ، خوفاً على حياة هذه الإبنة العزيزة المريضة !

وتوالت الأيام ، وازدادت علة أختى تبريحاً بهـا . وإنها لفى الأيام الأخيرة من علتها ، إذ سمعتها تقول لأبيها :

— لقد وعدتنى ألا يتزوج خالى أختى .

وأجابها : « نعم يا حبيبتى ، ولن يكون ذلك ! »

ولم أحفل بما سمعت وقد عقد قرانى . . . وبعد أسبوع توفيت أختى ، فحزنّا كلنا ، لجمالها وشبابها ورقتها وظرفها ، وقد وورى ذلك كله التراب !

وبعد أربعين يوماً من وفاتها ، لاحظت أن أبى كان كلما رآنى تبدو عليه سيما التفـكير العميق ، وأنه كلما خلا إلى أمى ، دار بينهما حديث لا يخلو من حـدة . . وسبب ذلك فيما أخبرتنى به أمى ، أنه كان يعتبر الكلمات الأخيرة التى قالتها أختى عن زواجى من خالها ،

والوعد الذى قطعه لها بأن ذلك لن يكون ، وصية مقدسة لابد من نفاذها . وأنه كان يفكر فى عقد قرانى ، وفى ضرورة التخلص منه بتطليقى من حبيبى .

وعبثاً حاولت أمى أن تقنعه بأن ما يريد من ذلك لا يمليه عقل ولا منطق ، فالحى أولى من الميت ، وليست له ، ولا لأحد فائدة من تنفيذ ما يسميه وصية المتوفاة ، على كره منى ، وممن عقد عليه زواجى . فقد أصر على أنه وعد ابنته ساعة انتقالها إلى العالم الآخر ، وعداً لن يستريح ضميره إلا إذا نفذه !

وقد ملك هذا الخاطر على أبى نفسه ووجدانه ، بصورة لم يكن لخيالى الشاب إذ ذاك أن يتصورها . كنت أستيقظ جوف الليل أحياناً لبعض شأنى ، فأراه فى البهو الذى تفتح عليه غرف نومنا ، يسير ذهاباً وجيئة ، ويكلم نفسه أحياناً ، بعبارات لا أتبينها ، وأسمعه يذكر إسمى واسم أختى المتوفاة . وكنت إذ ذاك أتسلل من غرفتى على أطراف أصابعى لقضاء ما أيقظنى ، ثم أعود متسللة كذلك حتى لا يشعر بى .

وكنت أذكر ما أرى من ذلك لأمى ، فأشعر بأنها ترتاع له ، وتشفق منه . وأفضت إلىّ فى هذه الآونة بأن أبى يريد تطليقى ،

وأوصتنى بأن أبذل كل جهد للاحتفاظ بزوجى العزيز . ولم أكن بحاجة إلى أى جهد أبذله ، وقد ربط الحب بين قلبي وقلب زوجى بأوثق رباط وأمتنه .

وقد تكرر أمامى منظر أبى ، وهو يذرع البهو ذهابا وجيئة ، ويكلم نفسه فى جوف الليل ، حتى كدت أشفق عليه . وبلغ منى الإشفاق غايته ، حين رأيته ذات ليلة ، وقد اعترته هزة عصبيه ، فبكى وبللت الدموع وجهه . عند ذلك لم أستطع أن أتسلل لأختفى منه ، بل ذهبت إليه أسأله ما به ؟

وأجابنى : « لا شيء ! . . إننى أشعر بمغص خفيف أقلقنى ، فعودى أنت إلى سريرك ونامى هادئة مطمئنة » .

وفى الصباح من ذلك اليوم دعانى أبى وقال لى :

— أنت تعلمين يا ابنتى كم أحبك وقد ازددت حباً لك منذ وفاة المرحومة أختك ، ولست أبتغى لك فى الحياة إلا السعادة . وخال أختك الذى عقدت قرانك عليه سكير مدمن ، وإنما رضيت عقد القران نزولا على إلحاح أمك الطامعة فى ماله ، والتى تحسب أن السعادة كل السعادة فى المال . أنا أعلم يا ابنتى أنك تحبينه ، وأنه يحبك ، لكن الحب عاطفة شباب ، إن لم يعصمها خلق متين تعرضت

للزوال ، بل تعرضت للانقلاب إلى نقيضها . والأمر كذلك مع السكيرين المدمنين ، أكثر منه مع غيرهم . لهذا فكرت فى أن أحمل خال أختك على تطليقك قبل أن يطلب أن تزفى إليه ، فأعينينى على ذلك بأن تظهرى له النفور منه ، وعدم الاطمئنان إلى الحياة الزوجية معه . فلو أنك فعلت ليسر ذلك ما أريد ، وفتح أمامك باب السعادة . وأعدك بأن أزوجك من رجل أقوم منه خلقاً ولا يقل عنه ثروة !

استمعت إلى هذا الكلام ، فأيقنت أن تفكيره الطويل فيه هو الذى أرقه وأبكاه جوف الليل ، وذكرت وأنا أسمعه ما كانت أختى تقول له عن زواج خالها منى ، ووعده بأن ذلك لن يكون . وقد كنت أرى أبى يتناول فى بعض الأحيان شيئاً من الشراب مع خال أختى ، فخيل إلى أنه يبالغ فيما يذكره من إدمان هذا الشاب للشراب وتوفره عليه . وتواردت هذه الخواطر على نفسى فى مثل لمح البصر . فلما أتم أبى كلامه ، أطرقت وقد احمر وجهى خجلا أو غيظاً . وبعد فترة قلت :

— ليس لى من هذا الأمر شىء يا أبى فالطلاق بيد زوجى لا بيدى . وقد عودتنى منذ طفولتى أن أكون معه اللطف والأدب ، فلا أستطيع الخروج على ما أدبتنى به . والأمر لك على كل حال !

وقمت من مجلس أبى موقنة أن ما وعد به أختى قبيل وفاتها من أن زواجى بخالها لن يتم هو الذى دفعه إلى حديثه معى .

وقصصت ما حدث على أمى ، فقالت :

إياك أن تغيرى مسلكك مع خال أختك ، فهو اليوم زوجك ، أنت حل له ، وهو حل لك ، ولا يجوز لك بأى اعتبار أن تخرجى عن طاعته !

* * *

أصبحت بين أبى وأمى وقلبى ، فى موقف لا أحسد عليه ، موقف تتجاذبنى فيه العواطف المتضاربة أشد التجاذب . فأنا أحب أبى وأحترمه ، وأحب أمى وأقدسها ، وأحب زوجى الذى عقد أبى قرانى عليه حب العبادة ! وكان هذا الزوج كلما رآنى أظهر من غرامه بى ما يزيدنى حباً له ، وما يجعل الاستجابة إلى ما طلبه أبى أمراً مستحيلا !

وكانت أمى تؤكد لى أن ما ذكره أبى عن إدمان زوجى الشراب غير صحيح . فهو يشرب كما أن الشبان جميعاً يشربون . وأبى نفسه كان فى شبابه يشرب كما يشرب زوجى اليوم ، ثم قلل من الشراب لأن صحته قضت عليه بالإقلال منه !

وكانت عبارات أبى وحرصه على سعادتى ، تتردد فى نفسى فلا أستطيع تكذيبها ، وإن لم يسهل على نفسى تصديقه !

كانت هذه العوامل كلها تتنازعنى ، فأصبح بينها كالريشة فى مهب الريح ، لكنى كنت أنتهى بالإذعان لعامل أقوى منها جميعاً ، ذلك حبى المشبوب الذى ملأ كل قلبي وكل جوانحى ، والذى كان يهزنى هزاً عنيفاً كلما رأيت زوجى وكلما ذكرته وهو غائب !

لم يكن حرص أبى على فصم عقدة الزواج ، بأشد من حرص أمى على أن تتم الخطوة الأخيرة فى هذا الزواج ، فيصبح أمراً مقضياً واقعاً . وقد علمت من بعد أن أبى كان يتهم أمى بأنها تريد أن يتم الزواج ليصبح الوقف لأولاد بنتها . وكانت أمى تجيبه بأن ذلك خير من أن ينتقل الوقف إلى أجانب ، لا تربطهم بأسرتنا كلها أى صلة . ثم تضيف .

— هذا إلى أن ابنتى وزوجها يحب كلاهما الآخر ، فحرام أن تفصل بينهما لأوهام تدور برأسك ولا يقرك عليها أحد !

وأدى هذا الخلاف العنيف بين أبى وأمى ، إلى مايشبه الانفصال . فنقلت أمى سريرى إلى غرفتها ، وكأنما خشيت إن أنا بقيت وحدى فى غرفتى الصغيرة ، أن يحملنى أبى على مايريده من تيسير أمر طلاقى .

وبعد ذلك بأسابيع ، حدث ما لا أدرى كيف أصوره ! ؟

* * *

أمسكت محدثتى عن الكلام برهة غير قصيرة ، وكانت تبحث عن الألفاظ التى تصور بها حادثاً تضطرب له . بل لقد بدا عليها مايشبه الاضطراب بالفعل وهى تتأهب لاستئناف قصتها ، برغم انقضاء عشرات السنين على هذا الحادث !

فلما ملكت نفسها ، استطردت تقول :

— كان أبى غائباً ذلك اليوم عن المدينة ، وكان زوج أمى فى طابق غير الذى كنت مع أمى فيه . وكنت وأمى قد ارتدينا كلتينا ثياب النوم ودخلت كل منا سريرها . وإننا لكذلك إذ فتح باب الغرفة ، ودخل منه خال أختى وعليه ثياب النوم ، وأوصد الباب بالمفتاح وراءه ، ثم اتجه قاصداً سريرى .

فلما رأيت ذلك منه ، جلست أنتظر ما عساه يريد أن يقول . لكنه لم يقل شيئاً . بل أزاح الغطاء إلى جانبى ! . عند ذلك قفزت من السرير ، وقلت فى صيحة مكظومة :

— ما هذا ؟ !

ونظرت إلىّ أمى وقد وضعت إصبعها على فمها ، وقالت :

— هس !

ثم قالت بصوت خافت :

— ارجعى إلى مكانك من سريرك ، إنه زوجك وأنت حل له وواجب عليك طاعته فيما يريد !

وقام زوجى فربت على كتفى بلطف وقال :

— ما يفزعك ؟ . . أليس ذلك مآلنا ؟ أم تعنيك زفة العروس كل هذه العناية ؟ . . أنت تعلمين أن ذلك غير ممكن بسبب الحزن على أختك . وأنك يوم تنتقلين إلى بيتى فسيكون ذلك فى صمت كصمت هذه الليلة . فما الفارق بين اليوم وغد ، أو بين اليوم وبعد أسبوع أو شهر ؟ إن حولنا يا حبيبتى مؤامرات يجب أن نفسدها ، بأن نضع المتآمرين أمام الأمر الواقع . ولا أظنك تعتقدين أن أمك أقل حرصاً على كرامتك وعلى مستقبلك منك أنت : لقد انعقد زواجنا على شرع الله وسنة رسوله . فلا تدعى هذه الفرصة تمر ، دون أن نفسد كيد الكائدين وتآمر المتآمرين !

وانضمت إليه أمى ، وجعلت تذكرنى بأننى زوجة تحب زوجها ، وتجب عليها طاعته . وأنها اتفقت مع زوجى على ما حدث ، فلا لوم عليه فيه وأننى يجب أن أكون عوناً على نجاح خطة يريدان بها خيرى وسعادتى !

وتظاهرت بالاقتناع بحججهما . واستأذنت زوجى فى أن أذهب لبعض شأنى ثم أعود فأكون على مايريد .

وفتح زوجى الباب الذى كان قد أوصده ، فذهبت إلى الحمام . ولم أكد أدخله وأوصد رتاجه ، حتى شعرت بالقشعريرة تهز جسمى كله ، وانهلت الدموع من عينى . وعجبت كيف تدفعنى أمى إلى أمر أخجل منه أمام أبى ، مهما يكن حلالا ، ومهما يجزه الشرع !

وفى لحظة ، ثبت عزمى على أن أقضى ليلى فى الحمام لا أبرحه حتى الصباح . فلما طال بزوجى انتظارى ، جاء زوجى فدق الباب فى رفق فقلت له :

— ناشدتك الله أن تدعنى ، ولن أخرج من هنا إلا فى الصباح !

قال : « أنت إذن لا تحبيننى ؟ » .

قلت : « بل أعبدك . وأنا فى طاعتك ما أمسكتنى . لكنى لن تأتى معى أمراً أخجل منه أمام أبى ، وإن كان حلالا لى ! » .

وعبثا حاول أن يصرفنى عن عزمى ، فلما بدا له اليأس منى ، تركنى وانصرف ، ولم أره إلا الغداة !

* * *

لم أدر ماذا حدث بعد ذلك بين أبى وأمى ، ويبدو أنها بالغت فى الإلحاح عليه بضرورة انتقالى إلى بيت زوجتى وأنه كان أشد منها إلحاحاً فى ضرورة تطليقى . وبلغ الجدال بينهما فى هذا الأمر أشده ، حتى لقد اتهمته أمى بأنه يكرهنى ويكره إخوتى منها ، وأنها لم يبق لها طاقة بالمقام فى بيتها لهذا السبب !

وأقسمت إنها ستغادر هذا البيت إلى بيت أخيها بعد ظهر اليوم نفسه ، وأقسم أبى يميناً إن هى فعلت كانت طالقاً ثلاثا .

ومست هذه اليمين صميم الكرامة من نفس أمى ، فجمعت متاعها ، وغادرت البيت ، وأوقعت بذلك يمين الطلاق الثلاث !

لست أدرى كيف غامرت أمى بإيقاع هذه اليمين ، وهى تعلم أنها لا إيراد لها ، وأن أخاها كثير العيال فلا يستطيع النفقة عليها ؟

وانقضت أسابيع بعد ذلك ، وأبى فى حيرة من أمره . يريد أن يطلقنى ولا يهتدى إلى الوسيلة التى يقنع بها زوجى ليطلقنى !

وأخيراً ، صارح أبى هذا الخال العزيز بأن ابنة أخته المتوفاة هى التى كانت تعارض فى زواجى من خالها ، وأنه وعدها — وهى على سرير موتها — بأن هذا الزواج لن يتم . وأنه يرغب إليه ، بل يرجوه بل يتوسل إليه ، أن يطلقنى احتراما لوصية ابنة أخته !

ومس هذا الكلام قلب زوجى ، لكنه لم ير أن يفصم عروة الزواج من تلقاء نفسه ، بل قال :

— أنا لا أطلقها إلا إذا قالت إنها لا تريد البقاء على ذمتى !

ولم يرد والدى أن يخاطبنى فى هذا الأمر ، بل رغب إلى خالى فى أن يخاطبنى فيه . وقلت لخالى إنه يطلب إلى المستحيل . فأنا لا أستطيع أن أكذب على الله فأزعم أننى لا أريد البقاء على ذمة زوجى . فلما ألح خالى ، قلت فى غضب وعصبية :

— إننى أوثر أن أنتحر على أن أجيبك إلى ما يريده والدى :

عند ذلك تركنى وانصرف !

وأقسم والدى جهد أيمانه إن لم أنزل على إرادته ليحرمن إخوتى من ميراثه ، وليحرمن أمى من كل نفقة . وأبلغ خالى ذلك إلى أمى فاضطربت له أشد الاضطراب ، وطلبت إلى أخيها أن يسكن روع أبى حتى ترى رأيها فى الأمر .

وبعد أيام ، أقبلت أمى ، وخلت إلىّ ، وأخذت تعظنى أن أنزل على رأى أبى ، شفقة عليها وعلى إخوتى !

ولأول مرة فى حياتى ، ثرت بها ، واتهمتها والدموع تنهل

من عينى ، بأنها تريد أن تحطم سعادة حياتى حرصاً على ميراث أبى ! .

وأقبل المساء وقد يئست أمى ، كما يئس أخوها من قبل . وإنا لننظر من النافذة ، إذ رأيت خالى يقبل متأبطاً ذراع زوجى ، وهو يتمايل وقد بدا عليه أثر الشراب . ورأيت من ورائهما أبى والمأذون يسير إلى جانبه !

وأسرعت أمى حين رأتهم مقبلين ، فهبطت الدرج إلى الطابق الأول ، وأيقنت أنا أن فى الأمر تدبيراً ، وأنهم أبلغوا زوجى أننى لم أعد أريد البقاء على ذمته . فصعد الدم إلى رأسى ، وقلت فى نفسى « لأفسدن تدبيرهم ! » .

وانسبت إلى غرفتى ، وأوثقت رتاجها ، ووضعت وراء الباب كل أثاثها ، واستنفد ذلك منى جهداً شاقاً ، فلما أتممته ، ارتميت فى سريرى منهكة القوى محطمة الأعصاب ، أبكى بكاء الطفل ، وأسأل نفسى :

— كيف يتآمر أبواى علىّ . . أبى تنفيذاً لما يسميه وصية ابنته المتوفاة ، وأمى إشفاقاً على عيشها أو على ميراث أبنائها ؟ !

ثم إنى رحت فى غيبوبة لا أعى شيئاً مما حولى !

وعلمت من بعد ، أنه لما اكتمل جمع القوم الذين حضروا للقضاء على حياتى وحبى ، كرر زوجى أنه يريد أن يسمع منى أننى لاأريد البقاء على ذمته ، فوقفت أمى على باب الغرفة التى اجتمعوا فيها ملثمة الوجه ، وقالت فى صوت متهدج ، وكأننى أنا التى أتكلم : « أنا لاأريد البقاء على ذمة زوجى » .

وقال الشاب وهو فى نشوة شرابه : « ليس هذا صوتها فإن كانت هى التى قالت فهى طالق ! » .

وحرر المأذون وثيقة الطلاق ، وانتهت المؤامرة ، إلى النتيجة التى أرادها أبى ! .

ذلك ما أخبرتنى به أمى من بعد ، فلما انصرف الجمع صعد أخى إلى غرفتى ورآها موصدة ، فتسلق نافذتها وانحدر من شراعتها ، وفتح بابها .

وخيل إلى أمى حين رأتنى فى غيبوبتى أننى فارقت الحياة ، فأرادت أن تصيح فأسكتها أبى ، ودعا الطبيب لساعته ، وقرر الطبيب أن مابى انهيار عصبى امتد أثره إلى القلب ، وأنه خطير على حياتى !

وأفقت فى الصباح ، ثم أقمت فى سرير مرضى أسابيع

عدة ، عوفيت بعدها وعادت إلىَّ الحياة ! .

ولاحظت من يومئذ أن أبى ازداد عطفاً علىَّ ولطفاً بى ، أكان ذلك لأنه ظفر بتطليق تنفيذاً لوصية أختى ! أم لأنه رآنى أشرفت على الموت نخشى أن يفقدنى كما فقد أختى ؟ !

الواقع أنه أغدق علىَّ بعد شفائى أضعاف ما كان يغدقه من قبل من رعاية وعطف ، وأنه انتهى إلى تزويجى من شاب من الأعيان ، له من الثراء ماحسب أبى أنه يغنينى عن التفكير فى الوقف الذى كان مآله إلى أبنائى .

وأقمت مع زوجى بضع سنوات ، أنجبت فى أثنائها بنين وبنات ، ولما علم خال أختى أننى تزوجت ، وأنه لم يبق له إلى الاتصال بى سبيل ، تزوج من إحدى نساء الشعب ، بعد أن أغرى زوجها بالمال فطلقها ، ورزقت هذه المرأة منه بنين أصبحوا هم المستحقين فى الوقف دون إخوتى وأمهم .

بعد بضع سنين ، ماتت زوجة حبيبى ، الذى طلقنى بخديعة أمى ، وإصرار أبى ، وساءت حال زوجى المالية لسوء إدارته ثروته ، فركبه الدين ، وأخذ يبيع أملاكه شيئاً فشيئاً ، وجاءتنى والدتى تذكر أن خال أختى مستعد لأن يدفع ديون زوجى ، على أن يطلقنى ، فأعود زوجاً له كما كنت من قبل !

لـكننى لم أحتج إلى التفـكير فى هذا الأمر الذى عرضته أمى ، بل رفضته بعد قليل ، ولم يكن ذلك لأن قلبى كان قد انصرف عن حبيبى الأول ، فقد بقيت أحبه من بعد كما كنت أحبه من قبل .

لـكننى شعرت بأنه يريد أن يشترينى من زوجى بالمال ، فـكبر ذلك على نفسى ، وشعرت فوق هذا بأن أولادى سينظرون من بعد إلى أمهم نظرة احتقار ، لأنها أزرت بهم ، جريا وراء مال لاحق لها فيه !

وأنت تعلم ياسيدى أننى منذ ذلك الحين قاسيت كثيرا ، حتى ساءلت نفسى غير مرة :

— أأحسنت فى تصرفاتى فى أثناء مأساتى ؟ ولـكنى أشعر اليوم بأننا لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا !

أتمت محدثتى قصتها ، فتولتنى الدهشة لما سمعت ، وزاد فى دهشتى ما كان يبدو عليها حين حديثها من انفعالات تدل على أنها لاتزال متأثرة بكل مامضى بها ، برغم الزمن الطويل الذى انقضى من يوم حدوثه إلى يومنا الحاضر !

وقلت أخيراً فى نفسى : لاموجب للدهشة ، لقد صدق الذين يقولون : كثيرا ما كان الواقع أعجب من الخيال !

* * *

فهرس

صفحة

الإهـداء ... ... هـ

مقـــدمة ... ... و

كفارة الحب ١

مــيراث ٢٦

يد القـــــدر ٤٣

الحـب أعمى ٦١

وفـاء ٨٠

شاهـــد الملك ٩٩

لله فى خلقه شـئون ١١٥

بأعمالـكم تؤجرون ١٣٤

الأسرة الثانية ١٥٢

الدين والوطن ١٧٠

آباء وأبناء ١٨٩

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٦٩/٣٦٩٤

مطبعة السنة المحمدية